مهدي الفتلاوي

التوبة والتائبون

دراسة تربوية إسلامية
حول مفهوم التوبة
على ضوء القرآن الكريم
ولأحاديث أهل البيت "ع"

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت

التوبـــة والتائبون

مهدي الفتلاوي

التوبة والتائبون

دراسة تربوية إسلامية لمفهوم التوبة
على ضوء القرآن الكريم والحاديث أهل البيت ع.

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص ب : ٧١٢٠

الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ يا عِبادي الذينَ أسْرَفوا عَلى أنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله . انّ اللهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَميعًا . انهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم » .

« انّ اللهَ يُحِبّ التوّابينَ وَيُحِبّ المُتَطَهّرِينَ » .

قرآن كريم

« ليس شيء أحب إلى الله تعالى من مؤمن تائب ومؤمنة تائبة »

حديث شريف

الإهـــداء

إلى الغارقين في بحر الآثام ، الذين حجب ركام المعـاصي قلوبهم عن نور الإيمان والهدى ، فيأسوا من إصلاح أنفسهم ، أهـدي هذا الكتـاب ، لعلهم يجدون فيه ما يعينهم على التخلص من ظلمة الذنوب وكابوس القنوط ، والتوجه ـ بنيات مخلصة ـ إلى « التوبة » باب رضوان الله تعـــالى . ومدخل ساحة مغفرته .

وإلى الذين استفاقت ضمائرهم ـ بعد أن تدنست في وحل الجريمـة ـ فبدأوا يفكرون من جديـــد بالعودة إلى ربهم الغفور الرحيم .... إلى هؤلاء المثقلين بكبائر الآثام وعظائم الذنوب ، الماقتين لأنفسهم الهـاربين من جرائمهم ومعاصيهم ، اقدم رسالة « التوبة والتائبين » . لعلها تهديهم نحو طريق التوبة المخلصة النصوحة .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

يتصور بعض الناس ، ان الهداية ـ بعد الضلال ـ إلى طريق الإستقامة والإيمان الصحيح ، أمر لا يملك الإنسان المذنب قراره بيده وإنما هو توفيق إلهي محض ... فالله سبحانه يهدي ويضل من يشاء من عباده ... !! والناس ـ حسب هذا الفهم ـ مقهورون من قبل خالقهم على الهداية ، مجبورون على الضلال ، وليس لهم من الأمر شيء ...!!

وهذا الفهم ليس صحيحاً ، لأنه يتعارض مع أوضح مفاهيم العقيدة الإسلامية ، فالاعتقاد الإسلامي الصحيح يؤكد ان عملية الإمداد الإلهي لإنقاذ المذنبين من ظلمات المعاصي ، وصدهم عن غيهم وفسادهم لا تتم من قبل الله تعالى وحده ، بالرغم من إيماننا بأنه على كل شيء قدير ... بل هي عملية مشتركة بين العبد وخالقه ، فليس فيها جبر ولا تفويض للانسان ، وعلى هذا فلا بد أن يبدأ المذنبون من جانبهم الخطوات الأولى لتغيير واقعهم المنحرف وإصلاح ما بأنفسهم من فساد وتطهيرها من ظلمة

المعاصي ، وبعد ذلك يأتيهم المدد الإلهي ليساعدهم على التخلص من أضرار الذنوب ، وينقذهم من تبعـــات ماضيهم الأسود ، كما أوضح هذا المفهوم العقائدي القرآن الكريم ، واعتبره قانوناً ربانياً ثابتاً في معركة الجهاد الأكبر « جهاد النفس » ، وفي معركة الجهاد الأصغر « جهاد الأعداء في ساحة القتال » . ففي كلتا المعركتين يأتي المدد الغيبي لنصرة الإنسان المحتاج ، بعد أن ينزل مخلصاً في معركة جهاده ضد عدوه .

قال الله سبحانه :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .(١)

وقال سبحانه :

« إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .(٢)

ومن هذا المنطلق اعتبر الإسلام « الإقدام على التوبـــة » من أهم الخطوات التربوية التغييرية التي يجب أن يخطوها المجتمع المذنب والأفراد المذنبون لمواجهة وإصلاح نفوسهم الأمارة بالسوء من أجل أن يغيروا ما بها من فساد ، ويعودوا بها من جديد إلى حياة الطهر والاستقامة ، حينما تتلبس بالمعاصي وتنزلق في أودية الانحراف وتغرق في وحل الجريمة .

وبالتوبة المخلصة يبدأ الضالون فكرياً ، والمنحرفون سلوكياً ، حياة جديدة عامرة بالإيمان والهدى ، زاخرة بالأعمال الصالحـــة ، متصفـــة

---

(١) الرعد : ١١ .

(٢) محمد : ٧ .

بالاستقامة والالتزام الديني الصحيح .

ومن هنا ندرك جيداً ما للتوبة الصحيحة من أثر عظيم على سلوك المذنبين النادمين على ما سلف من أفعالهم المنحرفة ، فالتوبة في حياةهؤلاء ما هي الا وقفة تأمل هادفة وقرار نفسي حاسم ، وانتفاضة وجدانية عنيفة ضد جميع أنواع الرذيلة ودواعي الانحطاط في النفس ، وهي بعد ذلك تعتبر رفضاً نفسياً وسلوكياً صارماً لكل عوامل الشر ، وأسباب الفساد في الحياة .

* * *

وبالرغم من الأهمية الكبيرة التي يحتلها مفهوم التوبة من بين مفاهيم الإسلام التربوية ، فإنها ـ مع ذلك ـ لم تطرح على صعيد ثقافي عام بأسلوب جديد وبطريقة تربوية وعلمية لها فاعليتها التغييرية في إرجاع المذنبين وإعادة العصاة الغاوين إلى خط الإسلام الملتزم .

فالمذنبون الراغبون في العودة إلى الله ـ تعالى ـ حينما يريدون التعرف على طريق الرجوع إلى حياة الإيمان والتقوى ليسلكوه عن معرفة وبصيرة ، فإنهم لا يجدون أمامهم ـ من البحوث الأخلاقية ـ ما ينير لهم الدرب نحو هذا الطريق ، غير ما كتبته مدارس الأخلاق التقليدية .

ومن الملفت للنظر أن هذه المدارس قد تأثرت ـ إلى حد كبير ـ بالنزعة الصوفية الغريبة عن روح الإسلام ، والمجافية لأهداف التربية الروحية للدين القيّم ، وبالإضافة إلى ذلك فإنها تفتقد المنهج العلمي في البحث ... فحينما نقرأ ـ مثلاً ـ في كتاب المحجة البيضاء . أو كتاب

جامع السعادات ، باعتبارهما نموذجين للفكر الأخلاقي المطروح من قبل مدارس الأخلاق القديمة ... نعم حينما نقرأ في هذين الكتابين موضوع التوبة ـ مثلاً ـ نجده مستعرضاً باسلوب وعظي تسيطر عليه النزعة الصوفية [1] في البحث ، كما نلاحظه متناولاً بطريقة غير موضوعية ، مما يجعل الباحث يخرج في كثير من الأحيان عن المحور الأساسي للفكرة ، غافلاً عن طرح أكثر الأبحاث المهمة في الموضوع [2] كالبحث ـ مثلاً ـ عن الأحكام الفقهية المتعلقة بالتوبة والتي تحدد الموقف العملي الشرعي للتائبين حسب طبيعة الذنب الذي ارتكبوه ، ووفقاً للظروف التي أعلنوا فيها التوبة .

أو كالبحث عن الشروط التي يصبح الإنسان بموجبها مذنباً وتجب عليه التوبة شرعاً ، فليس كلما أذنب الانسان يجب أن يتوب ، فالمضطر والمجبور على المعصية لا تجب عليه التوبة ... ولا كل الذنوب بحاجة إلى توبة ، كما يتبادر إلى التصور من أول وهلة ، وكما توحي بذلك هذه الكتب

---

(١) كتاب جامع السعادات في تصوري خال من النزعة الصوفية .

(٢) كان من المفروض أن تكون دراستنا النقدية لهذين الكتابين مشفوعة بالشواهد من نفس هذين الكتابين ، ولكننا أعرضنا عن ذلك لسببين (الأول) لبداهة هذه الملاحظات والانتقادات لدى أكثر القراء المطلعين على الكتابين المذكورين ، (الثاني) ان الدراسة النقدية التطبيقية المشفوعة بالشواهد والأرقام تستوعب صفحات عديدة ، الأمر الذي يجعل الكتاب كبيراً ومملاً لدى القراء .

الأخلاقية ، بل قيل ان مجتنب الكبائر إذا ارتكب الصغيرة من غير عناد ولا إصرار على الباطل ، لا تجب عليه التوبة ، لأن اجتناب الكبائر مكفر للذنوب الصغائر ، بنص القرآن الذي قال :

« ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » [1] .

بلى ، قد تكون التوبة مستحبة في الحالات المذكورة ، وليست واجبة ، وحينئذ تصبح توبة المضطر أو المجبور ـ وما شابه ـ مظهراً من مظاهر التقوى التي ينبغي أن يتصف بها المؤمنون المخلصون .

وأيضاً أهملت هذه الكتب البحث عن شروط قبول التوبة فليس كل توبة مقبولة في الاسلام، بل يجب أن تتصف التوبة بصفات معينة وشروط ذاتية وموضوعية خاصة تؤهلها للقبول وتكون بدونها غير كاملة .

وكذلك لا تجد في هذه الكتب أثراً للكلام حول موقف القضاء الإسلامي من توبة المذنبين أو المجرمين ، قبل القاء القبض عليهم ، أو عندما يعلنوا توبتهم أمامه بعد أن تدينهم المحكمة الاسلامية بأحد أصول إثبات الجريمة ... كما لا تجد أثراً للبحث عن المعصية الجماعية ، والتوبة الجماعية ، وإلى غير ذلك من الموضوعات المهمة الأخرى التي أغفلتها المدرسة الأخلاقية القديمة في موضوع التوبة ...

هذا مع غض النظر عن الأسلوب البياني الجامد ولغة العرض المعقدة

---

(١) النساء : ٣١ .

التي درجت عليها طريقة الدراسة في هذه الكتب ، الأمر الذي يجعلها ممجوجة ومرفوضة لدى أكثر المثقفين والمطالعين من أبناء هذا العصر .

ومع هذا ، فلا ينبغي لنا إنكار الدور التاريخي العظيم لهذه الكتب في حمل أعباء رسالة الأخلاق الاسلامية ، ونشر مفاهيمها وقيمها في الحياة ، كما لا ننسى تأثيرها التربوي والاصلاحي الكبير في إصلاح المجتمعات ، وتربية الأجيال المسلمة وخاصة من طلاب الدراسات الدينية في الحوزات العلمية ، فبالرغم من كل ما ذكر من مؤاخذات علمية وفنية عليها ، فإنها لا زالت موضع استفادة ومصدر عطاء لأكثر طلاب الأخلاق ونشاد الفضيلة ، مما يدل على أهمية ما تحتويه هذه الكتب من فكر أخلاقي معطاء.

وعلى كل ... لقد باتت الكتابة بلغة عصرية وأسلوب علمي جديد أمراً ضرورياً ليس من أجل طرح موضوع التوبة فحسب ، بل وإنما هو أمر تتطلبه ضرورات العصر ، فينبغي أن تعاد ـ على ضوئه ـ صياغة جميع الكتب الأخلاقية القديمة ، لنتمكن بذلك من القضاء على حالة الجفاء بين الكتاب الأخلاقي وعامة القراء .

وانطلاقاً من هذا الشعور ، جاء التفكير في الكتابة حول « التوبة »، باعتبارها من أهم الموضوعات التربوية التي يحتاجها المجتمع المسلم باستمرار، وخاصة وهو ـ اليوم ـ يعيش مرحلة الانتاء الهادف والصحيح للاسلام ، حيث يرى دينه يمر في منعطف تاريخي عظيم ، متجسداً في عودة الإسلام إلى قيادة الحياة من جديد ... فالانتاء الحقيقي للاسلام أصبح اليوم مطلباً رئيسياً لدى أكثر أبناء الأمة ، وهم ينظرون إلى رسالتهم الالهية تشق

دروب النصر في كل مكان من العالم متحدية قوى الشرق والغرب ... كل ذلك بفضل اليقظة الاسلامية العالمية التي أوجدتها الثورة الاسلامية المباركة في إيران الاسلام .

منهج البحث

وموضوع التوبة على صغره ، فإنه يحتوي أفكاراً وتوجيهات أخلاقية قيمة ومهمة جداً على الصعيد التربوي ، كما يشتمل على قضايا قانونية تحتل ركناً أساسياً في مواد القضاء الاسلامي ، ولهذا حاولنا دراسة الموضوع في قسمين رئيسيين : ـ

القسم الأول : يتناول أطروحة التوبة بشكل عام من خلال الأفكار التربوية والمفاهيم الأخلاقية والاحكام الشرعية التي أثارها الاسلام حول هذا الموضوع بالذات .

القسم الثاني : خصص لدراسة أحكام المجرمين والمذنبين التائبين وموقف المحكمة الاسلامية منهم ، وذلك في بحث فقهي تربوي نسترشد من خلاله بالآراء الاجتهادية المختلفة والمطروحة من قبل فقهائنا في موضوع التوبة أمام القضاء الاسلامي ، وسيكون المستفيد الاول من هذا القسم هم قضاة المحاكم الاسلامية وطلاب الدراسات الفقهية والقانونية .

والكتاب الذي بين أيدينا يجسد طموحات القسم الاول من هذه الدراسة المترابطة ، وقد تميز في طريقة دراسته للموضوع بالخصائص التالية:

١ ـ حاول سد الثغرات التربوية والفقهية التي أغفلها الكتّاب

السابقون الذين كتبوا في موضوع « التوبة » من قبل ، وهي كثيرة جداً [1] إلى درجة تجعل القارىء الموضوعي يقطع بأن الموضوع لم يكتب فيه من قبل بهذا المستوى في المضمون والطريقة .

٢ ـ استهدف الكتاب استعراض موضوع « التوبة » بكل تصوراته الرئيسية بطريقة تربوية ومنهجية مبسطة وبلغة بيانية واضحة وسلسة يستفيد منها عامة القراء على مختلف مستوياتهم الثقافية .

ولما كان هدف هذه الدراسة هو تسليط الاضواء على مفاهيم الاسلام حول مسألة « الخطيئة والتوبة » وإثارة الافكار التربوية التي طرحها الدين في طريق التائبين ، فقد تجنبنا الخوض من خلالها في المناقشات النظرية التي تثار عادة في مثل هذه الموضوعات الاخلاقية مكتفين بالدخول في الضروري منها والذي لا يتعارض مع الاهداف التربوية للموضوع .

٣ ـ حاول الكتاب عرض الفكرة الاسلامية مصحوبة بالنص الوارد بخصوصها متجنباً قدر الامكان الطرح الفكري المجرد الذى غالباً ما يعتمد على تأملات الكاتب وفهمه الخاص منفصلاً عن المصدر الاساسي للفكرة ، وإنما اعتمدت هذه الطريقة من الدراسة انطلاقاً من إيماني بأن النص الاسلامي سواء كان قرآنياً أو وارداً عن أهل البيت (ع) فهو غالباً ما يكون أكثر وضوحاً من كلام الفقهاء وعلماء الاخلاق .

وبالاضافة إلى ذلك ، فإن من أبرز الاهداف التربوية لهذه الطريقة من

---

(١) كما ألمحنا اليها في مطلع هذه المقدمة .

الدراسة هو ربط المسلمين مباشرة بالمصدر الاساسي لرسالتهم وعقيدتهم ، وكذلك ربطهم مباشرة بقيادتهم المعصومة من خلال النصوص التي تروى عنها . ومن المؤكد ان الافكار الاسلامية تختلف في قدسيتها وتأثيراتها التربوية لدى القراء ، اختلافاً كبيراً حينما تؤخذ من نصٍّ قرآني أوحديث وارد عن أهل البيت (ع) ، أو حينما تؤخذ من كاتب إسلامي صاغها بأسلوبه الخاص ، ووضع الستار على مصدرها الحقيقي المعصوم .

وقد واجهت هذه الدراسة عقبة رئيسية في الطريق ، تلك هي مشكلة تحديد الموقف العملي الشرعي للتائبين ، وكان ذلك أمراً طبيعياً باعتبار ان الاسلام كان مقصياً عن قيادة الحياة ... ولهذا لا نجد لفقهائنا رضوان الله عليهم آراء واضحة ومحددة في كثير من القضايا التي تصب في ساحة الحياة السياسية والادارية ... والتربوية التي يعتبر موضوعنا هذا جزءاً منها ... وقد حاولت اجتياز هذه العقبة بأسلوبين :

الاول : الاقتصار على ذكر الحكم الشرعي الذي يثيره البحث في الطريق فقط ، معتمداً في ذلك ـ بالدرجة الاولى ـ على فتاوى زعيم الامة الاسلامية الامام الخميني التي ذكرها لمقلديه ، موزعة في رسالته الفقهية « تحرير الوسيلة » .

الثاني : أما المواقف التي يراد لها حكم شرعي ، وقد برزت أمامنا في الطريق ومع ذلك لم نجد بحثاً فقهياً مخصصاً لها .. فقد جهدنا على أن نوفر لها الصورة الاسلامية من خلال معطيات نصوصها الموثوقة مع الاسترشاد ـ في أغلب الاحيان ـ بآراء الفقهاء التي لها علاقة من قريب بالموقف ، كما

تجسدت هذه العملية في مواضيع متعددة من الكتاب كالبحث عن الشروط التي يصبح الانسان بموجبها مذنباً شرعاً أو كالبحث عن شروط قبول التوبة ، أو كالبحث عن وجوب التظاهر بالتوبة الاجتماعية في المحيط الاجتماعي الذي مورست فيه المعصية الاجتماعية .

ويتلخص منهج البحث في فصول أربعة :

الفصل الاول : حول « الذنوب وآثارها وأنواعها وأسبابها وطرق علاجها » .

الفصل الثاني : يتناول الحديث حول « التوبة في التشريع الإسلامي » .

الفصل الثالث : عرض تربوي لمفهوم التوبة بعنوان « التوبة منهج تربوي رباني » .

الفصل الرابع : بحث خاص حول « المعصية الجماعية والتوبة الجماعية » وهو من أهم الموضوعات الاجتماعية التربوية التي تطرق لها هذا الكتاب .

وعلى كل فإننا لا ندعي العصمة من الخطأ في كل ما أوردناه في هذه المحاولة ولا سيما ان ظرف الإقدام عليها كان قد اتفق مع اضطراب الخواطر وكثرة المشاغل وقصر اليد عن المصادر... ولهذا نأمل أن يكون لتنبيهات العلماء الأعلام والقراء الكرام حول مواقع الغفلة والخطأ التي لا يسلم منها إلا من عصم ، أثر كبير في تكامل هذه المحاولة ونجاحها في تجربتها الثانية.

اللهم أستغفرك وأتوب اليك من خطاي وزللي ومن كل ذنب أذنبته، ومن كل جرم أجرمته ، اللهم وأسالك أن تقربني من رحمتك ، وتباعد بيني وبين معصيتك ، وتعاملني بلطفك وعنايتك ، وتجعل ما أثبته في هذه الأوراق حجة لي يوم ألقاك ، وذريعة في الوصول إلى تحصيل رضاك، إنك ذو الفضل القديم والمنّ العظيم .

اللهم واجعلني متقوياً على ضعفي وعدوي بنصرك وقدرتك ... **و« أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وان أعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لي في ذريتي اني تبت اليك . واني من المسلمين »** [1] .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين .

مهدي الفتلاوي

مدينة قم المشرفة

حرر ليلة ٢٣ / شهر رمضان المبارك / ١٤٠٣ هـ

---

(١) الاحقاف / ١٥ .

الفصـــل الاول

الذنـوب ، آثارهـا
وانواعها واسبابها
وطرق علاجهـــا

ما هي الذنوب

الذنوب مفردها ذنب ، والذنب لغة يعني : الجناية والجرم ، تقول : أذنب العبد ، واستغفر ـ الله تعالى ـ من الذنوب ، وتذنب على فلان ، مثل تجنى وتجرم [1] .

والذنوب في الشرع هي : عبارة عن مخالفة أوامر الله تعالى ونواهيه، واتباع الشهوات والرغبات الشيطانية والنوازع الشريرة في النفس الانسانية تلك التي تدعو إلى ترك الواجبات ، وارتكاب المحرمات .

وتعتبر الذنوب من وجهة نظر دينية قمة الرذائل ومصدر الشر والفساد في حياة الفرد والأمة ، ولذلك حرّمها الله ـ تعالى ـ على الانسان في كل الأديان ، ونهاه عن مقاربتها ، واعتبر الإقدام عليها مع سبق الاصرار ، سبباً لأكثر المصائب والنكبات التي يصاب بها الفرد والمجتمع ، سواء كان على الصعيد الاقتصادي ، أو السياسي ، أو الصحي ، أو غير ذلك .

---

(١) أساس البلاغة / ص ١٤٥ ، مادة ذنب .

وباختصار ، فإن ما من شيء يبعد الانسان ويعميه عن الاعتقاد بالله سبحانه وبأنبيائه وكتبه ويجعله يفقد القيم الالهيـــة ويستخف بالدين والمتدينين كالذنوب ، وهناك علاقة قوية جداً بين اتجـاه النفس نحو الحق والواقع وبين طهارتها وخلوها من المآثم والمعاصي . وان هذا الموضوع لمن أهم المواضيع التي يجب على علماء النفس « أو بالأحرى علماء آثار النفس » أن يبحثوا عنها ويرسموا لها خطوطاً بيانية ومنحنيات تقريبية . فإن الايمان يتغير ، أي « يزداد ويقـل » بحسب كثرة الآثام وقلتهـا بنسب لا يعلمها إلا الله تعالى [1] .

ولخطورة الذنوب على الانسان ـ فرداً أو مجتمعاً ـ حدد الاسلام أساليباً وطرقاً وقائية وعلاجية عديدة لمنع الانسان وصده من الوقوع في مخاطرها الوخيمة وتخليصه من أضرارها الخطيرة التي تسببها له في الدنيا والآخرة ، لذا يصبـــح من الضروري أن نتعرف بادىء الأمر على آثار الذنوب وأنواعها ودوافع الاقدام عليها ، وطرق التخلص منهـا ، وذلك قبل أن نتكلم عن التوبة التي هي من جملة أساليب الاسلام التربوية التي عالج بها مشكلة الاقدام على الذنوب والتلوث بآثامها .

الابعاد السلبيـــة للذنوب

ان كل ما اعتبره الاسلام ذنباً أو جرماً ، أثبت الواقع انـه بطبيعتـه داع إلى فساد الانسان وشقائه ، وهو بالتـــالي إما ينتهي بضرر مباشر

---

(١) التكامل في الاسلام / ج ٢ ، ص ١٢٣ .

أو غير مباشر على الحياة الفردية أو الاجتماعيـة ، وإلى هذه الحقيقـة فطن بعض العلماء الماديين في أوربا المعاصرة ، فكان أحدهم يقول :

« ان المعاصي ـ كما نعلم ـ تقلل من قيمة الحياة المعنوية ، وان تحمل العيوب والنواقص خطـأ فظيع ، فليس كل شخص حراً في تصرفاتـه ، وعلى هذا فالذي ينحرف عن الطريق المستقيم في الحياة ، ويبدوا متكاسلاً مفترياً على الناس ، ولا يبالي بارتكاب مختلف الذنوب يجب أن يعتـبر مجرماً عاماً ، ولكل ذنب آثاره الوخيمـة ، حيث يؤدي إلى الانحرافات العضوية والنفسية والاجتماعية فكما أن العضّ على أنامل الندم لا يتلافى العيوب الناشئة في جسد المدمن على الخمرة ، أو العيوب الوراثيـة في أطفالهم ... كذلك لا يمكن ترميم الانحرافات للناشئة عن الحسد والحقـد والغيبة والاثرة والانانية »[1] .

وإلى هذه الحقيقة الربانية التي ينادي بها العلماء الأوربيون اليوم أشار الامام علي بن موسى الرضا (ع) قبل أربعة عشر قرناً في رسالة له بعثهـا إلى تلميذه محمد بن سنان ، حينما سأله عن الحكمـة من الحلال والحرام ، فكتب اليه يقول :

« ... ووجدنا المحرم من الأشياء لا حاجة للعباد اليـه ، ووجدناه مفسداً داعياً إلى الفناء والهلاك »[2] .

---

(١) نقلاً عن كتاب الطفل بين الوراثة والتربية / ج ١ ، ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) بحار الانوار / ج ٣ ، ص ١١٨ .

وهكذا نجد العلم دائماً يلتقي مع الدين ، وإن كان بعد حين ، فإذا تصفحنا النصوص الاسلامية التي تحدثت عن أضرار المعاصي سوف نجدها دائماً تعلل جميع المآسي والمشاكل والنكبات الفردية والجماعية بالجرائم والذنوب التي يرتكبها الناس ، وهذا ما يدلل على ان الاسلام يطرح من خلال هذه النصوص ، نظرية متكاملة وقانوناً ثابتاً يرى على ضوئه ان جميع ما يواجهه الانسان في حياته من أضرار مادية ومتاعب نفسية ما هي إلا نتيجة تخلفه عن القوانين الالهية التي تتجسد في رسالات السماء للانسان، قال الله سبحانه وتعالى :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » (١) .

وقال سبحانه :

« ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان. فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (٢) .

وفي حديث للامام محمد الباقر (ع) ، قال فيه :

« ما من نكبة تصيب العبد إلا بذنب » (٣) .

فلكل ذنب إذاً ضرر خاص على الانسان ، فالزنا والسرقة ،والكذب والبهتان والظلم والخيانة ، والتجاوز على حقوق الآخرين،والغيبةوالفتنة

---

(١) الشورى / ٣٠ .
(٢) النمل / ١١٢ .
(٣) أصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

والنميمة ، كل هذه المحرمات تشبه الجراثيم التي تصيب الانسان وتؤدي إلى هلاكه عندما لا يعالجها .

ولا مجال في هذه الدراسة ـ المخصصة لموضوع التوبة ـ للحديث هنا عن مضار كل ذنب من الذنوب وبيان آثاره السيئة على حياة الفرد والمجتمع ، فإن مثل هذا العمل يحتاج إلى مجلدات ضخمة نظراً لكثرة الذنوب والمحرمات التي نهت الشريعة الاسلامية عنها ، ونتيجة لتعدد مساوىء الذنوب واختلاف أضرارها على الفرد والمجتمع لذلك سوف نتكلم هنا عن آثار المعاصي على حياة الانسان من جهة عامة على ضوء بعض النصوص التي دلت على ذلك ، هذا مع غض النظر عن أضرار المعاصي على المذنبين يوم القيامة ، فإن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث خاص مستقل به .

أما آثار الذنوب على الحياة الاجتماعية بشكل خاص ،فسوف نعقد له ـ إن شاء الله ـ فصلاً خاصاً بعنوان « المعصية الجماعية والتوبة الجماعية »، وهو الفصل الأخير من هذا الكتاب .

أثر الذنوب على القلب

للذنوب أثر كبير في تلويث النفس وأمراضها ، والاكثار منها يحدث قسوة وظلمة في القلب وهذه القسوة كثيراً ما تؤدي بالانسان إلى الجرأة على ارتكاب أبشع الجرائم وأكثرها خطراً على حياة الفرد والمجتمع ، وأوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة ، فقال :

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » [1] .

« كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » [2] .

« في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » [3] .

« فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » [4] .

« كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » [5] .

« ... وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » [6] .

وقد جاءت الأحاديث عن أهل البيت (ع) ، وهم يتحدثون عن أضرار الذنوب على النفس الانسانية ، مفسرة لمضمون هذه الآيات القرآنية ، وموضحة لها ، فقد روي عن الامام محمد الباقر (ع) ، انه كان يقول :

« ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء ، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء ، فإن تاب ذهب ذلك السواد ، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد ، حتى يغطي البياض ، فإذا تغطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً ، وهو قول الله عز وجل :

« كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » [7] .

---

(١) البقرة / ٧٤ .
(٢) المطففين / ١٤ .
(٣) البقرة / ١٠ .
(٤) الصف / ٥ .
(٥) غافر / ٣٥ .
(٦) النساء / ١٥٥ .
(٧) أصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

وروي عن الامام جعفر بن محمـــد الصادق (ع) حديث قريب من هذا ، قال فيه :

« إذا أذنب الرجل خرج من قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب انمحت ، وإن زاد ، زادت حتى تغلب على قلبه ، فلا يفلح بعدها أبداً »[1] .

وروي عن الإمام الصادق (ع) كذلك ، انه قال :

« ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته ، ان القلب ليواقع الخطيئة ، فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله »[2] .

لذلك امر الاسلام « المسلم أن لا يستهين بذنب ، ولا يستصغر معصية، وأن يحاسب نفسه ويستغفر الله كلـــما أذنب أو عصى لتتسع المسافات والأبعاد النفسية بينه وبـــين المعصية[3] » وليبقى نقي القلب طاهر السريرة ، فلا تترك المعاصي الطارئة عليه أثراً في قلبه وضميره .

اقتراف الذنوب ينسي العلم

روي عن رسول الله (ص) ، انه قال :

« اتقوا الذنوب ، فإنها ممحقة للخيرات ، ان العبد ليـــذنب الذنب فينسى به العلم الذي كان قد علمه ... »[4] .

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧١ .
(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٦٨ .
(٣) المعصية والشقاء / ص ١٥ .
(٤) البحار / ج ٧٣ ، ص ٣٧٧ .

ولهذا قال علمائنا الأبرار « ينبغي لطالب العلم أن يحسن نيته، ويطهر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول العلم وحفظه واستمراره »[1] .

وينقل عن أحد طلاب العلم واسمه (علي بن حشر) انه شكى يوماً ضعف ذاكرته لاستاذه ـ وكان اسمه وكيع ـ وطلب منه أن يرشده إلى دواء يعالج به مرضه هذا ، فنصحه ذلك الاستاذ بترك المعاصي ، فنظم بعضهم هذه النصيحة في بيتين قال فيهما :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فارشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصي[2]

ارتكاب الذنوب يسلب الخشوع

أما فيما يتعلق بدور المعاصي في سلب الخشوع من قلب الانسان وأثرها في إبعاده عن العبادات والأعمال الصالحة ، فإن الروايات عن أهل البيت (ع) كثيرة جداً بهذا الصدد ، فقد روي عن النبي الأعظم (ص) ، أنه قال :

« اتقوا الذنب فإنها ممحقة للخيرات ، ان العبد ليذنب الذنب فينسى به العلم الذي كان قد علمه ، وان العبد ليذنب الذنب فيمنع به من قيام الليل، وان العبد ليذنب الذنب فيحرم به الرزق . وقد كان هنيئاً له »[3] .

---

(١) منية المريد في آداب المفيد والمستفيد ، ص ١٠١ .
(٢) منية المريد في آداب المفيد والمستفيد ، ص ١٠١ .
(٣) البحار / ج ٧٣ ، ص ٣٧٧ .

ومما يذكر في هذا الموضوع ، ان رجلاً جاء إلى الامام علي (ع) وقال له :

« اني قد حرمت الصلاة بالليل ، فقال له الإمام : أنت رجل قد قيدتك ذنوبك »[1] .

ويروى عن الإمام جعفر الصادق (ع) ، انه قال :

« يقول الله تعالى : ان أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي »[2] .

وروي عنه كذلك ، قوله :

« ان الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل فإذا حرم صلاة الليل حرم بها الرزق »[3] .

الذنوب تمنع استجابة الدعاء

ذكر علماؤنا الأعلام ان من أهم شروط استجابة الدعاء ـ بعد إخلاص النية ـ هو ترك الذنوب ، وقد استدلوا على ذلك بروايات رويت عن أئمة أهل البيت (ع) ، منها قول الإمام محمد بن علي الباقر (ع) :

« ان العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب أو إلى وقت بطيء ، فيذنب العبد ذنباً ، فيقول الله تعالى للملك :

---

(١) وسائل الشيعة / ج ٥ ، ص ٢٧٩ .
(٢) الحقائق / ص ٢٩٨ .
(٣) وسائل الشيعة / ج ٥ ، ص ٢٧٨ .

لا تقض حاجته ، واحرمه إياها ، فإنـــه تعرض لسخطي واستوجب الحرمان مني »[1] .

ومنها ، ما روي عن الإمام جعفر الصادق (ع) ، وهو يقول :

« ان الله عز وجل يقول : وعزتي وجلالي لا أجيب دعوة مظلوم دعاني في مظلمة ظلمها ، ولأحد عنده مثل تلك المظلمة »[2] .

ومعنى هذا الحديث ، انك لو ظلمت شخصاً ، واعتـــديت على ماله ـ مثلاً ـ ولم تتب من ظلمك هذا ، ولم ترجع المال لصاحبـــه ، ثم جاء شخص آخر واعتدى على أموالك وظلمـك حقك وأنت بدورك فزعت إلى الله سبحانه ، ودعوت على ظالمك ، فإن الله سبحانـــه لا يستجيب دعائك هذا وإن كنت مظلوماً ، وذلك لما سبق منك مثل هذا الظلم لأحد العباد ، ولم تتب منه .

ارتكاب الذنوب يزيل النعم

وقد ذكر القرآن ذلك ، فقال :

« ... كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ، ان الله قوي شديدالعقاب وذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغـــيروا ما بأنفسهم ، وان الله سميع عليم »[3] .

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧١ .
(٢) وسائل الشيعة / ج ١١ ، ص ٣٤٠ .
(٣) الانفال / ٥٢ ـ ٥٣ .

وينقل عن الإمام جعفر الصادق (ع) ، انه سمع أباه يقول :

« ان الله قضى قضاء حتماً الا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة »[1] .

وروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) ، قوله :

« ما أنعم الله على عبد نعمة فسلبها إياه حتى يذنب ذنباً يستحق بذلك السلب »[2] .

وروي عنه كذلك أنه ، قال :

« الذنب يحرم العبد الرزق »[3] .

ارتكاب الذنوب ينزل البلاء

قال الله سبحانه في كتابه الكريم:

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »[4] .

وروي عن الإمام أمير المؤمنين (ع) ، أنه قال :

« توقوا الذنوب ، فما من بلية ولا نقص رزق إلا بذنب حتى الخدش والكبوة والمصيبة ، قال الله عز وجل :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »[5] .

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٣) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧١ .

(٤) النور / ٦٣ .

(٥) الخصال / ج ٢ ، ص ١٥٨ .

وروي عن الإمام جعفر الصادق (ع) حديث قريب من هـــذا ، قال فيـــه :

«أما انه ليس من عرق يضرب ولا نكبـــة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب ، وذلك قوله عز وجل في كتابه : « وما أصابكم من مصيبـــة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » ، ثم قال (ع) : وما يعفوا الله (عنـه) أكثر مما يؤاخذ به »[1] .

وروي عن الإمام محمد الباقر (ع) انه قال :

« ما من نكبة تصيب العبد إلا بذنب »[2] .

وروي عن الامام علي بن موسى الرضا (ع) بهذا الصدد قوله :

« كلما أحدث العبـاد من الذنوب ما لم يكونوا يعلمون ، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون »[3] .

وينقل عن الامام جعفر الصادق (ع) ، قوله :

« من يموت بالذنوب أكثـر ممن يموت بالآجال ، وممن يعيش بالاحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار »[4] .

وروي عنه كذلك ، انه قال :

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٦٩ .
(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٦٩ .
(٣) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٦٩ .
(٤) أمالي الطوسي / ج ١ ، ص ٣١١ .

يقول الله عز وجل: «إذا عصاني من عرفني سلطت عليه من لا يعرفني»[1].

وهكذا يتضح لنا ان اقتراف الذنوب عمل مهدد لحياة الانسان بكل جوانبها ... ولهذا كان الأئمة من أهل البيت (ع) دائماً يحثون المؤمنين بأساليبهم التربوية الخاصة على ضرورة تربية الذات ومحاربة النفس الأمارة بالسوء، وقطع الطرق المؤدية بها إلى المعصية، وكانت طريقة التربية «بالدعاء والمناجات» من أهم وأبرز الأساليب التربوية التي تميّز بها أهل البيت (ع) في تربية أتباعهم، وهم يعيشون شتى الضغوط الجائرة من حكام عصرهم الظالمين ويواجهون مختلف مظاهر الفساد والانحراف التي تنتشر يوماً بعد يوم في المدن الاسلامية بتشجيع من السلطات الأموية والعباسية، وفي هذه الأجواء ترك أهل البيت (ع) تراثاً عظيماً من الأدعية والمناجات التي تؤلف بوحدها منهجاً تربوياً روحياً متكاملاً له أثره العظيم في تعبيد الانسان لله سبحانه، وشده إلى المعنويات وانتشاله من حالات السقوط وإبعاده عن كل التصورات الشهوانية والمادية التي تقوده إلى الرذيلة وتنتهي به إلى طريق الشر والفساد، ومن تلك الأدعية دعاء كميل للامام أمير المؤمنين (ع)، هذا الدعاء العظيم الذي دأب الشيعة على قراءته في كل ليلة جمعة في المراقد المقدسة والمشاهد المشرفة وفي بيوتهم ومساجدهم، ومما جاء في هذا الدعاء حول أضرار الذنوب

---

(١) اصول الكافي / ج ٢، ص ٢٧٦.

ومساوئها ، قوله (عليه السلام) :

« اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتـــك العصم
اللهم اغفر لي الذنوب التي تـــنزل النقـم
اللهم اغفر لي الذنوب التي تغـــير النعـم
اللهم اغفر لي الذنوب الـتي تحبس الدعـاء
اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البـــلاء
اللهم اغفر لي كل ذنب أذنبتـــه ، وكل
خطيئة أخطأتها »[1] .

---

(١) مفاتيح الجنان / دعاء كميل .

انواع الذنـــوب

للذنوب تقسيمات عديدة ، وللاختصار سوف نقتصر على تقسيمهـــا من جهة عقلية تارة ، ومن جهة شرعية تارة أخرى .

التقسيم العقلي للذنوب

يمكن تقسيم الذنوب والمعاصي التي تؤدي إلى تدمير الشخصية وفساد النظام الاجتماعي ، وإحلال الفوضى فيه ـ من وجهة نظر عقلية إلى ثلاثة أنواع رئيسية ، وهي :

(أولاً) الذنوب التي توجب الاستهانة بحقوق الله تعالى ، والتمرد على ربوبيته ، كالشرك والكفر به ، وكترك عبادته استكباراً واستنـكاراً ، مثل ترك الصلاة أو الصوم أو الحج ، أو غير ذلك من الواجبـــات التي يجمعها عنوان « حقوق الله تعالى » .

(ثانياً) الذنوب التي توجب استهانة الانسان بحق نفسه ، وعدم امتثال أوامر الله سبحانـــه فيما نهاه عن أعمال تعود بالضرر عليه ، كالتكـــبر والغرور ، والانتحـار ، وشرب الخمور ، والرياء واللواط ، وغيرها من

المعاصي والآثام التي تجعل الانسان مقصراً « بحق نفسه وكرامته » .

(ثالثاً) الذنوب التي توجب الاستهانة بكرامة الناس والاعتداء على أموالهم وأعراضهم ، وذلك بارتكاب الجرائم التي يتعدى ضررها إلى الآخرين من أبناء المجتمع كالسرقة والغش والاحتكار والظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي ... وكالقتل والغيبة والنفاق بين المسلمين أو اتهامهم أو إهانتهم أو إيذائهم ، وغير ذلك من المعاصي والجرائم التي يعتدي بها العاصون والمجرمون على (حقوق الناس) [1] .

التقسيم الشرعي للذنوب

وللذنوب من جهة شرعية تقسيمات عديدة ، فالاسلام يقسم الحقوق إلى قسمين فقط ، حقوق لله ـ سبحانه ـ ، وحقوق للناس ، وتبعاً لذلك تقسم المعاصي في نظره إلى معصية في (حق الله تعالى) ومعصية في (حق الناس) .

ويقسم الفقهاء من جهة أخرى المعاصي والذنوب إلى كبائر ، وصغائر ، وقد استفادوا من هذا التقسيم من نصوص كثيرة وصريحة وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ومن هذه النصوص الواضحة، قول الله سبحانه:

---

(١) ولا يخفى ان هذه الأنواع متداخلة في بعضها ، فالذنب الواحد الذي يوجب الاستهانة بحقوق الناس هو في نفس الوقت يوجب الاستهانة بحقوق الله لعدم امتثال أمره في ترك هذه المعصية ، وهو كذلك يوجب الاستهانة بحقوق النفس .

« ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما »[1]

فقد كشفت هذه الآية عن وجود نوعين من الذنوب « كبائر » و « صغائر » وذلك بدلالة المقابلة بين اجتناب الكبائر والتكفير عن السيئات[2] التي اعتبرها الفقهاء هي الصغائر في الآية :

ونظير الآية السابقة في الدلالة قوله تعالى :

« ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها »[3] .

فإن خوفهم وإشفاقهم مما في الكتاب الذي يؤتى به يوم القيامة يدل على أن المراد بالصغيرة والكبيرة في قولهم هذا ، صغائر ذنوبهم وكبائرها .

وسنتحدث ـ فيما يلي ـ عن الذنوب الكبائر والصغائر بشكل مفصل كل على انفراد .

---

(١) النساء / ٣١ .

(٢) ولا يشتبه عليك أيها القارىء الكريم ، فان كلمة (السيئات) قد استعملت كثيراً في القرآن الكريم ، ولكنها ليست بمعنى واحد ، وإنما استعملت تارة بمعنى المصائب والأمور التي يسوء الانسان وقوعها ، كما في قوله تعالى « وما أصابك من سيئة فمن نفسك » النساء / ٧٩ ، واستعملت تارة أخرى في بيان آثار المعاصي في الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى : « فأصابهم سيئات ما عملوا » النحل / ٣٤ ، وربما أطلقت على مطلق المعاصي صغيرة أم كبيرة ، كقوله تعالى « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون » الجاثية / ٢١ ، أما في الآية الكريمة التي استشهدنا بها فقد استعملت بمعنى (صغائر الذنوب) بدلالة السياق.

(٣) الكهف / ٤٩ .

كبائر الذنوب

اختلف فقهاء المسلمين قاطبة في تعريف المعصية الكبيرة فذكروا لذلك تعريفات عديدة ومختلفة قد يتناقض بعضها مع البعض الآخر ، ويبلغ مجموعها أكثر من خمسة عشر تعريفاً ، وأكثرها لا يسلم من النقد .

ومن أهم هذه التعريفات قول بعضهم : ان الكبائر هو كل ما اشتملت عليه سورة النساء من أولها إلى تمام ثلاثين آية أي إلى قوله تعالى :

« أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » (١) .

وكأن هذه الآية في نظر هؤلاء تشير إلى المعاصي المبيّنة في الآيات السابقة عليها لا غير .

ويرد على هذا التعريف بأنه فهم مناف لاطلاق الآية ، فالآية في معرض بيان مفهوم الكبيرة ، وقد حددته بما « تنهى عنه » سواء جاء هذا النهي من القرآن الكريم بمجموعه لا في سورة النساء فقط ، أو جاء على لسان

---

(١) النساء / ٣١ .

النبي (ص) الذي لا ينطق عن الهوى .

ومن هذه التعريفات المهمة قولهم :

ان الكبيرة : كل ما أوعد الله سبحانه عليـــه في يوم الحساب عقاباً ووضع له في الدنيا حداً .

ويرد عليه ان هناك ذنوب ثبت بالنص انها من الكبائر ، في حين نجد الشريعة الاسلامية لم تعين لها حدوداً كأكل الربا مثـــلاً أو الاصرار على الصغيرة فإنها كبيرة باتفاق الفريقين، حيث رووا عن رسول الله (ص) قوله:

« لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار » .

وكذلك ولاية الكفار تعتبر من الكبائر في الاسلام ، ومع ذلك ليس لهذه المعصية حد في الشريعة [1] .

ومن هذه التعريفات والايضاحات لبيـان معنى الكبـيرة ، ما ذهب اليه أبو حامد الغزالي ووافقه الفيض الكاشاني وتابعهما الشيخ النراقي والعلامة البهائي رحمة الله عليهم أجمعين [2] .

قال أبو حامد :

ان الشرع ربما أبهم الكبائر ولم يعيّنها ليكون العباد على وجل منها،

---

(١) ولكن الشريعة الاسلامية أعطت صلاحيات خاصة للامام ونائبـه في الحكم لتحديد العقوبات المناسبة لمرتكبي مثل هذه الجرائم التي لم تعين الشريعـة لها حداً ثابتاً .

(٢) راجع كلامهم في بحث التوبة في احيـاء العلوم للغزالي، والمحجة البيضاء للكاشاني ، وجامع السعادات للنراقي ، والأربعين للبهائي .

فيجتنبون جميع الذنوب خوفاً من الوقوع في الكبائر كما ابهم ليلة القدر ليجدّوا ويجتهدوا في العبادة في سائر ليالي شهر رمضان المبارك .

والحق ان كلام هؤلاء الأجلاء من علمائنا الأتقياء لا ينسجم مع ظاهر النصوص الشرعية التي نصت على كثير من الكبائر ، كما أعطت بعضها قواعد عامة لمعرفة الكبائر التي لم ينص عليها ، كالآية التي حددت مفهوم الكبيرة بما « ننهى عنه » فقالت : « أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ... » سواء جاء هذا النهي في القرآن أو في أحاديث المعصومين .

فهذه الآية لا يستفاد منها الدعوة إلى اجتناب جميع الذنوب ـ حتى الصغائر ـ مخافة الوقوع في الكبائر المبهمة كما فهم ذلك الغزالي ، ومن تابعه ، كما أنها لا تمنع من معرفة الذنوب الكبائر فإن ذلك معنى بعيد عن مساقها ، بل المستفاد من ظاهرها ان المخاطبين هم قادرون على معرفة الكبائر والتمييز بينها وبين الصغائر وذلك من النهي المتعلق بالكبائر ولا أقل أن يقال ان الآية تدعو إلى معرفة الكبائر حتى يهتم المسلمون في اتقائها كل الاهتمام ، لأن معرفة الكبائر طريق إلى اجتنابها فيجب أن يتعرفوا عليها حتى لا يقعوا في ارتكابها نتيجة تهاونهم عن معرفتها الذي هو إحدى الكبائر في الاسلام [1] .

أما الابهام الحاصل في ليلة القدر إن كان مسلماً ، فإن إحياء هذه الليلة

---

(١) الميزان / ج ٤ ، ص ٣٢٥ .

المباركة ليس واجباً شرعياً [1] ، بينما اجتناب الكبائر من أهم الواجبات التي يعاقب مقترفها أشد العقوبات ، فليس إذاً من المعقول أن ينهي الله تعالى عباده عن أمور جعلها مبهمة عليهم ، ومع ذلك يعاقبهم على فعلها يوم القيامة .

أليس جلّ ذكره هو القائل :

« ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها ، وله عذاب مبين » [1] .

فأين هذه الحدود التي نهى الله عن تجاوزها إذا كانت كبائر الإثم في حدوده وشريعته مبهمة ، وهي أهم حدوده جلّ شأنه ؟!!

والواقع ان الاختلاف بين علماء الإسلام وفقهائه في تعريف الكبيرة يرجع في حقيقته إلى اختلاف الروايات في تعداد الكبائر وبيان مفهومها وحدودها ، ولكي نتعرف على الحقيقة لا بأس أن نستعرض جملة من هذه الروايات التي تحدثت عن الكبائر ، فإنه يروى عن الإمام أبي عبد الله الصادق (ع) وحده أكثر من أربع روايات مختلفة حول عدد الكبائر ، وبيان المفهوم العام لها ، فقد نقل عن أبي بصير ، قال : سمعت أبا عبد الله ـ الإمام الصادق ـ عليه السلام يقول:

« الكبائر سبعة : منها قتل النفس متعمداً ، والشرك بالله العظيم ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا بعد البينة ، والفرار من الزحف ، والتعرب

---

(١) النساء / ١٤ .

بعد الهجرة ، وعقوق الوالدين ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، قال: والتعرّب والشرك واحد »[1] .

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق (ع) ، كذلك يرويها الحلبي عنه في تفسير قول الله عز وجل :

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » ، قال (ع) : «الكبائر التي أوجب الله عزّ وجل عليها النار »[2] .

وروى محمد بن عمير عن بعض أصحابه عن الإمام الصادق (ع) قوله:

« وجدنا في كتاب علي (ع) : أن الكبائر خمس الشرك بالله عزوجل، وعقوق الوالدين ، وأكل الربا بعد البينة ، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة »[3] .

وقال عبيدة بن زرارة سألت الإمام الصادق (ع) عن الكبائر فقال :

« هنّ في كتاب علي (ع) سبع : الكفر بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وأكل الربا بعد البينة ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، والفرار من الزحف والتعرب بعد الهجرة » .

قال عبيدة بن زرارة فقلت : فهذا أكبر المعاصي ؟ ، قال (ع) نعم !

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٨١ .
(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧٦ .
(٣) الخصال / ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

قلت : فاكل درهم من مال اليتيم ظلماً أكبر ، أم ترك الصلاة ؟ ، قال(ع): ترك الصلاة ، قلت : فما عددت ترك الصلاة في الكبائر ؟ فقال (ع) : أي شيء أول ما قلت لـــك ؟ قال : قلت الكفـــر ، قال (ع) : فإن تارك الصلاة كافر »[1] .

وروى عن محمد بن سنان انه سمع استاذه الإمام الصادق (ع) يقول :

« الكبـــائر سبع ثم عـــددها ، وأخيراً قال : وكل ما أوجب الله عليه النار »[2] .

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق (ع) ، ذكر فيها عشرين كبيرة مستدلاً على كل واحدة منها بآية من القرآن الكريم[3] .

وقد عدد الكبائر بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام ، إلى ثمانيـة ، وبعضهم إلى تسعة ، ونقل أصحاب الحديث عن ابن عباس أنه سئـل عن الكبائر أسبع هي ؟ فقال :

« إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبعة »[4] .

والذي يغلب عليه الظن أنه ليس بين هذه الروايات اختـلاف ، لأنها جاءت كلها بهدف واحد ، وهو : إعطاء قاعدة عامة لبيان مفهوم الكبيرة،

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧٨ .
(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧٧ .
(٣) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٨٥ .
(٤) الاربعين / ص ١٩٢ .

والاختلاف في بيان عدد الكبائر في هذه الروايات استخدم من أجل تقرير هذه القاعدة ، على ضوء التعريف بالمثال ، كما يدلنا على ذلك اعتراض عبيدة ابن زرارة على الإمام الصادق (ع) حينما عدد الكبائر ولم يذكر منها « ترك الصلاة » فأجابه الإمام قائلاً : « أي شيء أول ما قلت لـك ؟ » فقـال ابن زرارة « الكفر » فقال الإمام : « فإن تارك الصلاة كافر » .

ومما يعزز هذا الرأي رواية محمد بن سنان عن الامام الصادق (ع) عندما سمعه يعدد الكبائر فذكر منها ستة ، ثم قال : « وكل ما أوجب الله عليه النار » مما يكشف لنا ان الامام الصادق (ع) بصدد إعطاء قواعدعامة لمعرفة بعض الكبائر وليس هو في معرض تعداد الكبائر كلها .

وحينما سئل ابن عباس رضوان الله عليه عن الكبـــائر أسبع هي؟ أجاب : إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبعة ، مما يكشف بأن الكبـــائر السبع التي ذكرها الامام الصادق (ع) وغيره من الأئمـــة ، هي أصول الكبائر ، وليس كلها ، ومن خلال هذه الأصول يمكن معرفة قسم آخر من الكبائر ، كما أوضح ذلك الامام الصادق «ع» ، لعبيدة بن زرارة ، ولهـذا كان ابن عباس يرفض حصر الكبائر في السبعة ، ومن هذا المنطلق حاول فقهاتنا (رضوان الله عليهم) الجمع بـين هـذه الروايات على ضوء ما دلت عليه من قواعد عامة ، غير متعارضة استفادوا من مجموعهـا الكلي ، عدم محدودية كبائر الذنوب بما ذكرته الآيات والروايات فقط ، وعلى أساس هذا الفهم عرّف الامام الخميني (حفظه الله) الكبائر بقوله:

« وأما الكبائر فهي : كل معصية ورد التوعد عليها بالنار أوالعقاب،

أو شدد عليها تشديداً عظيماً ، أو دلّ دليل [1] على كونها أكبر من بعض الكبائر أو مثله ، أو حكم العقل بأنها كبيرة ، أو كان في ارتكاز المتشرعة كذلك ، أو ورد النص بكونها كبيرة وهي كثيرة .. » [2] .

وبهذه القواعد الفقهية العامة التي استفادها فقهائنا من القرآن والسنة يتبدد الغموض والابهام الذي يحيط مفهوم الكبيرة ، فلا تبقى كبائر الذنوب بعد ذلك مجهولة لدى المسلمين ، كما تصور ذلك أبو حامد الغزالي ومن تابعه من علمائنا الأجلاء .

والخلاصة ان الشريعة الاسلامية بيّنت الكبائر ، وحددتها باسلوبين رئيسيين :

الأول : انها نصّت بصراحة على كثير منها في القرآن الكريم ، وسنة المعصومين (ع) .

الثاني : وضعت قواعد عامة لمعرفة الكبائر التي لم ينص عليها صراحة في القرآن والسنة ، ومن جملة هذه القواعد (اجتناب ما نهى عنه الله سبحانه نهياً شديداً) ، فبعض المحرمات لم ينص الشرع على كونها كبيرة ، ولكنه نهى عنها نهياً شديداً ، وهذا كاف في اعتبارها من الكبائر وفقاً للقاعدة المذكورة .

وهكذا نطبق قاعدة « اجتناب ما وعد الله تعالى عليه نار جهنم »

---

(١) المقصود بالدليل هنا هو أحد أدلة استنباط الحكم الشرعي .

(١) تحرير الوسيلة ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

واعتبار كل ما تشمله هذه القاعدة من الكبائر ، أو قاعدة « اجتنـــاب الكفر بكل أنواعه » تلـك التي أشار اليهـا الامام الصادق (ع) في حديثـه لعبيدة بن زرارة ، وغير ذلك من القواعد الفقهيـة الأخرى التي ذكرها الامام الخميني في تعريفه لمفهوم الكبيرة .

قائمة في بعض كبائر الذنوب

ولأجل الفائدة التربوية نذكر هنا قائمة مرقمة تتنـاول بعض كبـائر الذنوب المستفادة من الآيات القرآنية والروايات المعتبرة ، ننقلها من كتاب (تحرير الوسيلة) للامام الخميني ، ولزيادة الفائدة نحاول أن نـذكر لكل كبيرة من الكبائر النصّ الشرعي الذي دلّ عليها [1] .

١ ـ اليأس من روح الله ، قال سبحانه :

« يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيـه ولا تيـأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » [2] .

٢ ـ الأمن من مكر الله ، قال سبحانه :

« أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » [3] .

---

(١) أدلة الكبائر التي ذكرت هنا نتحمل مسؤولية الخطأ فيهـا إن وجد ، لان الامام الخميني حفظه الله تعالى ذكرها مجردة عن أدلتها في رسالتـه العملية « تحرير الوسيلة » .

(٢) يوسف / ٨٧ .

(٣) الاعراف / ٩٨ ـ ٩٩ .

٣ ـ الكذب على الله ورسوله وأوصيائه ، قال سبحانه :

« فمن اظلم ممن كذب على الله وكـــذب بالصدق اذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين » [١] .

٤ ـ قتل النفس المحرمة ، قال سبحانه :

« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ، ولعنه وأعد له عذاباً عظيما » [٢] .

٥ ـ عقوق الوالدين ، قال سبحانه :

« قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والـــزكاة ما دمت حيـــا ، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا » [٣] .

وقال سبحانه :

« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عنـــدك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريمـــا ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا [٤] .

٦ ـ أكل مال اليتيم ظلماً ، قال سبحانه :

« ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمـــا انمـــا يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » [٥] .

---

(١) الزمر / ٣٢ .
(٢) النساء / ٩٣ .
(٣) مريم / ٣٢ .
(٤) الاسراء / ٢٣ ـ ٢٤ .
(٥) النساء / ١٠ .

٧ ـ قذف المرأة المحصنـــة ، ويراد به اتهامها بالزنا وما شابـــه ، قال سبحانه :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعـــد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم »[١] .

وكذلك القذف باللواط كما دلّت عليه الروايات .

٨ ـ الفرار من الزحف عندما يكون الجهاد واجباً على المسلمـــين ، قال سبحانه :

« ومن يولهم يومئذ دبره ، الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »[٢] .

٩ ـ قطيعة الرحم بين ذوي القربى ، قال سبحانه :

« فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم »[٣] .

١٠ ـ تعلم السحر والعمل به للاضرار بالآخرين ، قال سبحانه :

« ... يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهـــما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا بـــه أنفسهم لو كانوا يعلمون »[٤] .

---

(١) النور / ٤ ـ ٥ .
(٢) الأنفال / ١٦ .
(٣) محمد / ٢٢ ـ ٢٣ .
(٤) البقرة / ١٠٢ .

١١ ـ الزنا ، قال سبحانه :

« والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما » [١] .

١٢ ـ اللواط ، قال سبحانه :

« واللذان يأتيانها منكم فاذوهما فان تابا وأصلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيما » [٢] .

١٣ ـ السرقة ، قال سبحانه :

« السارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » [٣] .

١٤ ـ اليمين الغموس ، قال سبحانه :

« ... ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا اولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » [٤] .

١٥ ـ كتمان الشهادة ، قال سبحانه :

« ... ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم » [٥]

---

(١) الفرقان / ٦٨ ـ ٧٠ .
(٢) النساء / ١٦ .
(٣) المائدة / ٣٨ .
(٤) آل عمران / ٧٦ ـ ٧٧ .
(٥) البقرة / ٢٨٣ .

١٦ ـ شهادة الزور ، قال سبحانه :

« **فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم** »[١] .

١٧ ـ نقض العهد ، قال سبحانه :

« **واوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ...** » [٢] .

« **واوفوا بعهدي أوف بعهدكم واياي فارهبون** » [٣] .

١٨ ـ الحيف في الوصية :

قال الصدوق في الفقيه : وروي في بعض الأخبار : ان الحيف في الوصية من الكبائر [٤] ، أقول لم أقف على نص لها غير كلام الصدوق هذا .

١٩ ـ شرب الخمر والفقاع وكل ما كان مسكراً ، قال سبحانه :

« **يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** » [٥] .

٢٠ ـ أكل الربا ، قال سبحانه :

« **الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، واحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فاولئك**

---

(١) البقرة / ١٨١ .
(٢) النحل / ٩١ .
(٣) البقرة / ٤٠ .
(٤) من لا يحضره الفقيه / ج ٣ ، ص ٣٦٩
(٥) المائدة / ٩٠ ـ ٩١ .

أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ، [1] .

٢١ ـ أكل السحت ، قال سبحانه :

« سماعون للكذب أكالون للسحت ... » [2] .

وقد نصت الروايات المعتبرة عن أهل البيت (ع) على كونه من الكبائر .

٢٢ ـ اللعب بالقمار ، وقد دلت على حرمته وكونه من الكبائر آية الخمر السابقة .

٢٣ ـ أكل لحم الميتة ، قال سبحانه :

« انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ، ان الله غفور رحيم » [3] .

٢٤ ـ أكل الدم ، وقد دلت على حرمته الآية السابقة .

٢٥ ـ أكل لحم الخنزير ، كذلك ذكر في الآية السابقة.

٢٦ ـ أكل ما أهل لغير الله تعالى ، من غير ضرورة ، والمراد به أكل ما ذبح لغير وجه الله سبحانه ، وقد دلت على حرمته الآية السابقة كذلك .

---

(١) البقرة / ٢٧٥ ـ ٢٧٦ . (٢) المائدة / ٤٢ .
(٣) البقرة / ١٧٣ .

٢٧ ـ البخس في المكيال ، والمراد به نقص الناس أشيائهم فيما يوزن من المبيعات ، وقد دلّ على حرمته وكونه من الكبائر ، قوله سبحانه :

« ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على النـــاس يستوفون ، واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » [١] .

٢٨ ـ التعرّب بعـــد الهجرة . وكانت تطلق على كل من هاجر إلى المدينة « عاصمة الإسلام الأولى » ثم غادرها إلى قرى الاعراب التي لا دين فيها ، ويستثنى من ذلك المبلغ الرسالي الذي يحمل تعاليم الإسلام لهـــذه القرى ، ويطبق فقهاء الإسلام هذا الحـــكم اليوم على كل مسلم يسافر من وطن إسلامي محافظ إلى وطن آخر يخـــاف فيه على عقيدته ودينـــه وأخلاقه من الانحراف .

ذكرت هذه الكبيرة روايات كثيرة عن أهل البيت (ع) منها ما جاء بسند صحيح ، عن ابن محبوب ، قال : كتب معي بعض أصحابنا إلى أبي الحسن (ع) ، يسأله عن الكبائر ، كم هي ؟ وما هي ؟ ، فكتب (ع) :

« الكبائر من اجتنب ما وعد الله عليه بالنار كفّر عنـه سيئاتـه إذا كان مؤمناً ، والسبع الموجبات : قتـــل النفس الحرام وعقوق الوالدين وأكل الربا والتعرب بعد الهجرة وقذف المحصنـــات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف » [٢] .

---

(١) المطففين / ١ ـ ٦ .

(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

٢٩ ـ معونة الظالمين ، قال سبحانه :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ، بعضهم اولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين** »[١] .

٣٠ ـ الركون إلى الظالمين ، قال سبحانه :

« **ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النـــار ، وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون** »[٢] .

٣١ ـ حبس الحقوق من غير عذر ، ذكر ذلك الإمام علي بن موسى الرضا (ع) في كتابه للمأمون[٣] .

٣٢ ـ الكذب ، قال سبحانه :

« **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتـــا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون** »[٤] .

وقال سبحانه :

« **انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله واولئك هم الكاذبون**»[٥].

٣٣ ـ التكبر ، قال سبحانه :

« **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين** »[٦]

٣٤ ـ الإسراف ، قال سبحانه :

---

(١) المائدة / ٥١ .
(٢) هود / ١١٣ .
(٣) وسائل الشيعة / ج ١١ ، ص ٢٦٠.
(٤) الصف / ٢ ـ ٣ .
(٥) النحل / ١٠٥ .
(٦) النحل / ٢٩ .

« ... وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » [1] .

٣٥ ـ التبذير ، قال سبحانه :

« ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » [2] .

٣٦ ـ الخيانة ، قال سبحانه :

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا اثيما » [3] .

٣٧ ـ الغيبة ، قال سبحانه :

« يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم » [4] .

٣٨ ـ النميمة ، قال سبحانه :

« هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد اثيم عتل بعد ذلك زنيم » [5] .

وقال سبحانه :

« ويل لكل همزة لمزة » [6] أي النمام المغتاب .

وروي عن رسول الله (ص) انه قال :

« لا يدخل الجنة نمام » [7] .

---

(١) الأعراف / ٣١ .
(٢) الاسراء / ٢٧ .
(٣) النساء / ١٠٧ .
(٤) الحجرات / ١٢ .
(٥) القلم / ١١ ـ ١٣ .
(٦) الهمزة / ١ .
(٧) جامع السعادات / ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

٣٩ ـ الاشتغال بالملاهي : ذكر هذه الكبـــيرة الإمام الرضا (ع) في كتابه المأمون [١] .

٤٠ ـ الاستخفاف بالحج ، قال سبحانه :

« ... ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غني عن العالمين » [٢] .

٤١ ـ ترك الصلاة المفروضة ، قال سبحانه :

« كل نفس بما كسبت رهينة الا اصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين » [٣] .

٤٢ ـ منع الزكاة الواجبة ، قال سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بهـــا جبـــاههم وجنوبهم وظهورهم ، هـــذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » [٤] .

٤٣ ـ الإصرار على المعصية الصغيرة ، جاء ذكرها في أحاديث كثيرة عن أهل البيت (ع) ، ومنها حديث الإمام الصادق (ع) :

---

(١) وسائل الشيعة / ج ١١ ، ص ٢٦١ .
(٢) آل عمران / ٩٧ .
(٣) المدثر / ٣٨ ـ ٤٦ .
(٤) التوبة / ٣٤ ـ ٣٥ .

« لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار »[1] .

٤٤ ـ الشرك بالله العظيم ، قال سبحانه :

« **ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلـــك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى اثماً عظيما** »[2] .

٤٥ ـ إنكار ما أنزل الله تعالى ، قال سبحانه :

« **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب الجحيم** »[3] .

٤٦ ـ محاربة أولياء الله[4] ، ذكر هذه الكبيرة الامام الرضا (ع) في كتاب كتبه للمأمون[5] .

٤٧ ـ الكفر بالله العظيم ، قال سبحانه :

« **والله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** »[6] .

٤٨ ـ كتمان ما أنزل الله تعالى من الأحكام ، قال سبحانه :

« **ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا اولئك**

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٨٨ . (٢) النساء / ٤٨ .
(٣) المائدة / ١٠ .
(٤) إلى هنا تم بيان الكبائر التى ذكرت في تحرير الوسيلة ج ١ ، ص ٢٧٤ وما سنذكره بعدها فهو من استدرا كاتنا .
(٥) وسائل الشيعة / ج ١١ ، ص ٢٦١ .
(٦) البقرة / ٢٥٧ .

ما يأكلون في بطونهم الا النـــار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، [1] .

٤٩ ـ الاضلال عن سبيل الله ، قال سبحانه :

« ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيـــامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك ، وان الله ليس بظلام للعبيد » [2] .

٥٠ ـ الحكم بغير ما أنزل الله ، قال سبحانه:

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون » [3] .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون » [4] .

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون » [5] .

٥١ ـ المنع من ممارسة الشعائر الاسلامية في مساجد المسلمين وبالأخص في بيت الله ، مكة المكرمة ، قال سبحانه :

« ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعى في خرابها ، اولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين ، لهم في الدنيـــا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم » [6] .

٥٢ ـ النفاق بين المسلمين، وأشده حرمةما كان بين العاملينوالمجاهدين لتفريق صفوفهم ، قال الله سبحانه في وصف المنافقين :

---

(١) البقرة / ١٧٤ .
(٢) الحج / ٨ ـ ١٠ .
(٣) المائدة / ٤٤ .
(٤) المائدة / ٤٥ .
(٥) المائدة / ٤٧ .
(٦) البقرة / ١١٤ .

« ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألدّ الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد » [١] .

« ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يرائون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ، ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » [٢] .

وقال الله سبحانه يصف حال المنافقين يوم القيامة :

« يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا ورائكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم ، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور » [٣] .

وقال سبحانه :

« الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا » [٤] .

٥٣ ـ الفتنة ، قال سبحانه :

« ... الفتنة أكبر من القتل » [٥] .

---

(١) البقرة / ٢٠٤ ـ ٢٠٦ .
(٢) النساء / ١٤٢ ـ ١٤٥ .
(٣) الحديد / ١٣ ـ ١٤ .
(٤) النساء / ١٤٠ .
(٥) البقرة / ٢١٧ .

٥٤ ـ الظلم « قال سبحانه :

« ... انا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بها سرادقها ، وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا »[١] .

٥٥ ـ إشاعة الفاحشة بين المسلمين ، قال سبحانه :

« ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[٢] .

٥٦ ـ التجسس على المسلمين ، دلت على حرمته الآية التي نهت عن الغيبة .

٥٧ ـ الغلول ، ومعناه : الخيانة في غنائم الحرب والسرقة منها قبل القسمة ، وقد دلّ على حرمة ذلك قوله سبحانه :

« وما كان لنبي أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »[٣] .

٥٨ ـ محاربة المؤمنين وإيذائهم ، قال سبحانه :

« ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق »[٤] .

٥٩ ـ الرياء ، وهو نوع من أنواع الشرك ، قال سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل

---

(١) الكهف / ٢٩ .
(٢) النور / ١٩ .
(٣) آل عمران / ١٦١ .
(٤) المجادلة / ١٠ .

فتركه سلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين» [1].

٦٠ ـ القيادة ، وهي : الجمع بين اثنين لعمل الفحشاء ، ويسمى فاعله قواد . قال الشيخ الصدوق ، روي انه : لعن رسول الله (ص) الواصلة والمؤتصلة ـ يعني الزانية والقوادة في هذا الخبر ـ [2] .

٦١ ـ الافتاء بغير علم متعمداً ، قال سبحانه :

« ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » [3] .

وقال رسول الله (ص) :

« من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض » [4] .

٦٢ ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دون عذر :

« لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » [5] .

---

(١) البقرة / ٢٦٤ . (٢) من لا يحضره الفقيه/ ج٤، ص ٣٤ باب حد القواد
(٣) البقرة / ٣٢ . (٤) تحف العقول ، ص ٣٤ .
(٥) المائدة / ٧٨ ـ ٧٩ .

صفـــائر الذنوب

وهي المعاصي التي لم يتوعد الله تعالى مرتكبها نار جهنم ، ولم يرد فيها نهي شديد ، وبالجملة هي : الذنوب والمحرمات التي لا تندرج تحت القواعد العامة التي حددها الفقهاء لمعرفة الكبائر وهي كثيرة كذلك ، منها «لبس الحرير ولبس الذهب بالنسبة للرجال » ، ومجالسة أهل الشرب ، بل مطلق الجلوس على مائدة فيها مأكول أو مشروب محرم » و « الشرب في آنية الذهب والفضة » و « تناول لقمـــة أو جرعة متنجسة » و « الخلوة مع الأجنبية » و « النظر لها بشهوة » و « حلق اللحية » و « سقطـــات اللسان » و « الزهو والغرور إذا لم يكونا وسيلة إلى الاساءة والاضرار بالآخرين » وغير ذلك .

وقد أكدت الشريعة الاسلامية على أهمية اجتناب صغائر المعاصي ، معتبرة ذلك من أهم الأساليب التربوية التي ينبغي للمسلم الملتزم أن يعوّد نفسه عليها مقدمة لمنعها وصدّها عن الوقوع في الكبائر ، وقد قرر هذا المفهوم التربوي الاسلامي الامام علي بن موسى الرضا (ع) في قوله :

« الصغائر من الذنوب طرق إلى الكبائر ، ومن لم يخف الله في القليل لم يخفه في الكثير »[1] .

الذنب الصغير قد يصبح كبيراً

قال علماء الأخلاق[2] : يمكن أن يصبح الذنب الصغير كبيراً في نظر الشرع ، إذا اتصف فاعله بأحد حالات ستة ، وهي كما يلي :

أولاً : الاصرار والمواظبة على الصغيرة ، كما روي ذلك عن الامام محمد الباقر (ع) ، وهو يفسر قول الله تعالى :

« ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » ، قال : «الاصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر ، ولا يحدث نفسه بتوبة ، فذلك هو الاصرار »[3] .

وقال رسول الله (ص) ، في حديث متفق عليه بين المسلمين[4] :

« لا صغيرة مع الاصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار » .

والاصرار على المعصية الصغيرة نوعان :

إما إصرار فعلي عليها ، وهو المتمثل في المداومة على نوع واحد من

---

(١) عيون أخبار الرضا / ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٢) منهم أبو حامد الغزالي في احيـاء العلوم ، ومنهم الفيض الكاشاني في المحجة والحقائق ، وكذلك النراقي في جامع السعادات .

(٣) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

(٤) ذكر ذلك صاحب الميزان ، وروى الحديث الكليني عن الصادق(ع) ، راجع الكافي ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

المعاصي الصغيرة بدون توبة ، كالنظر باستمرار إلى المرأة الأجنبية ـ مثلاً ـ أو الاكثار من ارتكاب الصغائر بلا توبة ، وإما إصرار حكمي، وهو العزم على إتيان الصغيرة مرة أخرى بعد الفراغ منها ، أما إذا فعل المعصية الصغيرة ، ولم يحدث نفسه بالتوبة بعد أن انتهى من فعلها ولم يعزم على العودة اليها ، فالظاهر أنه ليس بحكم المصر عليها ، كما يفهم ذلك من كلام الامام الخميني حينما تعرض لبيان نوعي الاصرار على الصغيرة وتعريفها ، بقوله :

« الاصرار الموجب لدخول الصغيرة في الكبائر هو : المداومة والملازمة على المعصية من دون تخلل التوبة ، ولا يبعد أن يكون من الاصرار العزم على العودة إلى المعصية بعد ارتكابها ، وإن لم يعد اليها ... »[1] .

ولا يخفى ان تعريف الامام الخميني ـ حفظه الله ـ للاصرار الحكمي بالعزم على تلك الصغيرة التي ارتكبها المذنب ـ بعد الفراغ منها ـ ليس معناه انه لو كان عازماً على صغيرة غير التي ارتكبها لا يكون مصراً ، بل ان هذا من المصرين كذلك .

ويشمل الاصرار الحكمي من كان عازماً مدة سنة ـ مثلاً ـ على اقتراف صغيرة ـ كتقبيل امرأة أجنبية ـ لكنه لم يقبلها لعدم تمكنه من ذلك .

وربما السر في اعتبار الصغيرة كبيرة ـ بسبب الاصرار ـ يعود إلى

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ١ ، ص ٢٧٥ .

أثر المعصية على النفس الانسانية ، لأن المعصية الصغيرة لا تترك أثراً كبيراً في القلب بارتكابها مرة واحدة أو مرتين ... بينما تصبح شديدة التأثير على النفس إذا تكررت فتتراكم آثارها الضعيفة فتحدث بالأخير ظلمة في القلب والنفس كما تترك مثل ذلك المعصية الكبيرة إذا فعلها الانسان مرة واحدة .

ثانياً : استصغار الذنوب ، قال أمير المؤمنين عليه السلام :

« أشد الذنوب ما استخف به صاحبه »[1] .

وعن الامام الكاظم عليه السلام ، قال :

« لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب فإنّ قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً »[2] .

وهناك روايات مستفيضة بهذا المضمون ، ويروى بهذا الصدد أن الله سبحانه أوحى إلى بعض أنبيائه يقول :

« لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظيم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها »[3] .

ثالثاً : أن يغتر مرتكب الصغيرة بستر الله تعالى عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري بأن الله سبحانه لا يهمل بل يمهل مقتاً ليزداد العبد

---

(١) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، رقم ٤٧٧ .
(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٢٨٧ .
(٣) المحجة البيضاء / ج ٧ ، ص ٥٩ .

بالامهال إثماً وعدواناً ، ومن جملة أسباب هذا التهاون عن التوبة من الصغائر أن يرى المذنب نعم الله تعالى تترى عليه مع عصيانه له ، فيظن ان الله سبحانه غير غاضب على ارتكابه لهذه المعاصي الصغيرة ، فيأمن من مكر الله تعالى الذي لا يأمن من مكره إلا القوم الكافرون ، ولا يدري هذا المسكين انه ربما يقع في حبائل استدراج الله تعالى له ، وهي أخطر حالات غضب الله تعالى على عبده المذنب ، فقد سئل الامام الصادق عليه السلام عن الاستدراج ، فقال :

« هو العبد يذنب الذنب فيملي له ، ويجدّد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب ، فهو مستدرج من حيث لا يعلم » [1] .

ويقول سماعة بن مهران ، سألت الامام الصادق عليه السلام عن قوله عز وجل (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) ، قال :

« هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذنب » [2] .

وكان الامام الصادق عليه السلام يقول :

« كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه ، وكم من مستدرج بستر الله عليه ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه » [3] .

ولهذا يحذرنا أمير المؤمنين عليه السلام من التهاون عن التوبة من المعاصي بسبب ستر الله تعالى علينا ، فيقول :

---

(١) و (٢) و (٣) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٥٢ .

« الحذر الحذر ، فوالله لقد ستر حتى كأنه غفر »[1] .

رابعاً : السرور بالصغيرة ، كمن ينظر إلى فتاة أجنبية ويفرح من تمكنه على ذلك بدلاً من أن يأسف ويندم على مخالفته هذه ، فإن نفس هذه الحالة النفسية توجب صيرورة الصغيرة كبيرة ، لأنها تكشف عن تجرأ على الله سبحانه واستهزاء بأحكامه وهتك لحرماته .

وقيل انه كلما غلبت حلاوة المعصية الصغيرة في نفس الانسان صعب عليه هجرها ، وعظم أثرها في تسويد قلبه ، فتكبر عند مولاه وخالقه جلّ ذكره[2] .

خامساً : أن يرتكب الصغيرة بالخفاء ، ثم يخبر عنها أصدقائه ، كالذي يمارس بعض المحرمات الجنسية الصغيرة سراً ثم يخبر أصدقائه بذلك ، فإن مثل هذا قد اقترف أكثر من معصية في معصية واحدة ، فهو بالاضافة إلى عصيانه ، فقد فضح نفسه وهتك ستر الله عليه ، ثم شجع أصدقائه على ارتكابها في إخباره لهم عن لذتها مشيعاً الفاحشة بينهم ، وبهذا تتحول معصيته الصغيرة إلى كبيرة ، « راجع الكبيرة رقم ٥٥ » .

سادساً : أن يكون المتجاهر بالصغيرة ذا موقع اجتماعي ويقتدى به ، كعالم الدين والمعلم والأب والأم والمربية .. الخ فإن تجاهر هؤلاء بالصغيرة سيشجع من يقتدي بهم على ارتكابها اقتداءاً بهم ، وربما يتحول اقتراف

---

(١) نهج البلاغة / باب الحكم ، رقم ٢٩ .

(٢) لم أقف على نص كشاهد على هذه الحالة .

الصغيرة عند المقتدين إلى سنة تبقى آثارها بعد وفاة القدوة ، كما قال الله سبحانه « ونكتب ما قدموا وآثارهم »[1] ، ومعنى الآية كما يفسرها الخبر انه « من سن سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » .

ولا وجه لحصر هذا الكلام بالعلماء دون غيرهم ... كما فهمه الفيض الكاشاني والشيخ البهائي ومن تابعهما من المتأخرين، كآية الله البجنوردي[2] فإن هذا الحصر تخصيص لمفاد الآية والرواية بدون دليل ، وربما مبعثه هو حصر مفاد الآية والرواية بأخص مصاديقها وهو العالم الديني لكثرة ما يقتدى به ، ولكنه توهم ، لأن الأب والمربي والقائد مثله ، وعلى كل حال ينبغي على المعلمين والقادة والعلماء والوعاظ والزهاد والآباء والأمهات والمربين والمربيات وكل من يقتدي الناس بسلوكه اجتناب الصغائر من الذنوب علانية ـ على أقل التقادير ـ لكي يتجنبوا إغراء من يقتدي بهم بالمعصية فيكونوا سبباً لسنة سيئة في المجتمع .

اجتناب الكبائر مكفر للصغائر

قال بعض الفقهاء بعدم وجوب التوبة من الصغائر لمن اجتنب الكبائر ، واستدلوا على ذلك بالآية الصريحة التالية :

﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ... ﴾

---

(١) يس / ١٢ .

(٢) راجع آراء هؤلاء الأعلام في بحث التوبة « الحقائق للكاشاني » و « الأربعين للبهائي » و « القواعد الفقهية ج ٧ » للبجنوردي .

والواقع ان اجتناب الكبائر إنما يكون مكفراً للصغائر بشروط :

أولها : أن لا تتصف الصغيرة بإحدى الصفات الستة الماضية ، فإن اتصافها بذلك يجعلها من الكبائر التي لا تغتفر إلا بالتوبة المخلصة الصادقة.

ثانيها : أن تُجتنب الكبيرة مع القدرة والارادة على الاتيان بها ، كمن يتمكن من مواقعة امرأة محرمة عليه ـ مثلاً ـ فيكف نفسه عن ذلك مقتصراً على لمسها والنظر اليها [1] ، أما إذا كان اجتنابه للكبيرة ناتجاً عن خوف من شخص يراقبه أو عجز أو مانع آخر ، فلا يصلح ذلك لتكفير صغائره ، قال بهذا الشرط أبو حامد الغزالي وتابعه الفيض الكاشاني والشيخ النراقي ، ولم أقف على نص شرعي صريح يدل على وجاهة هذا الشرط ، بل ظاهر الآية « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ... » خلاف هذا الشرط .

ثالثها : أن يكون محافظاً على أداء الصلوات الخمس على الوجه الصحيح ، كما روي عن النبي ﷺ ، أنه قال : « ان الصلوات كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » [2] . وجاء في حديث آخر عنه كذلك : « ما من مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوئها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤب كبيرة » [3] .

---

(١) الامثلة الواردة في هذا الفصل نقلناها من كتاب المحجة البيضاء « بحث التوبة » .

(٢) و (٣) الاربعين / ص ٢٢ .

والروايات عن أهل البيت (ع) بهذا المعنى متظافرة جداً ، والمستفاد منها اعتبار اجتناب الكبائر وأداء الصلاة المفروضة بشكل صحيح شرط واحد لا شرطين لأن النبي ﷺ يقول « ان الصلوات كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » فالشرط الأول والثالث شرط واحد لا شرطين ، خلافاً لما ذهب اليه شيخنا البهائي رحمة الله عليه فإنه كان يرى المحافظة على الصلوات الخمس وأدائها بشكل صحيح مكفر لنوع خاص من الذنوب الصغائر غير الذنوب التي تكفر باجتناب الكبائر [1] ، وهذا الكلام يتعارض ومفاد الروايتين المتقدمتين تماماً .

ومن الغريب جداً أن الفيض الكاشاني والشيخ النراقي لم يتعرضا للشرط الثالث ، وهو اشتباه منهم ـ فيما أتصور ـ لأن الشرط الأول بدون الثالث ناقص .

شبهة واهية !

وقد يتصور البعض ان في قوله تعالى : « ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريما » إغراء بالمعصية لأن الاسلام حينما اعتبر الكبائر سبباً للتكفير عن الصغائر فإنه قد شجع بذلك على ارتكاب الذنوب الصغائر .

وهذا الكلام ليس واقعياً ولا معقولاً ، فمن الواضح ان من يجتنب

---

(١) راجع رأيه في الاربعين / ص ٢٢ .

الكبائر خوفاً من نار الله أو طمعاً في جنته ، أو حباً له وتعلقاً به جل ذكره ـ سوف يكون من طريق أولى مجتنباً للصغائر التي لا قيمة لها عنده ، وهو يمتلك إرادة قوية صلبة استطاع بها أن يتحدى جميع مغريات الشيطان وإلحاح النفس الأمارة بالسوء حينما يدعوانه لارتكاب الكبائر.. وقد أثبتت تجارب المؤمنين المتقين ان من عصم نفسه عن ارتكاب الكبائر سوف لا يقدم على المعصية الصغيرة إلا خطأ أو نسياناً أو اشتباهاً أو اضطراراً. ومن هذا المنطلق نفهم الحكمة في حكم الاسلام بعد وجوب التوبة على مرتكب الصغائر إذا كان مجتنباً للكبائر .. لأن مثل هذا الانسان التقي الورع لا يمكن أن يتعامل مع المعصية الصغيرة بملء إرادته ورغبته ، وإنما تفرض عليه الظروف الضاغطة والأجواء الغامضة الوقوع في المعصية الصغيرة وهو مع ذلك غير راغب فيها ولا محب لها .

أسباب الوقوع في المعاصي

عندما نتساءل عن الدوافع التي تقف وراء ارتكاب الذنوب والأسباب التي تغري الإنسان بالمعصية وتدعوه إلى ترك الطاعة ، نجدها كثيرة جداً ، فهي تختلف من ذنب إلى ذنب ومن حالة إلى أخرى ، وللاختصار لا بد أن نتحدث عن الأسباب الرئيسية منها ، وهي أربع :

١ ـ فقدان الإيمان بالله سبحانه : كما دلت على ذلك إحصائيات علماء النفس والتربية في علم دراسة أسباب الجريمة في اوربا [١] ، فقد أثبتت هذه

---

(١) راجع كتاب الطفل بين الوراثة والتربية ، ج ١ ، المحاضرات الاولى .

الاحصائيات أن أكثر مرتكبي حوادث الاجرام والخطايا العظام كانوا ممن ينقصهم الايمان الحقيقي بالله سبحانه وبالقيم الانسانية العليا ، مما يكشف على ان انطفاء جذوة الايمان بقوة غيبية عليا تراقب الانسان في السر والعلانية من أكبر أسباب الجريمة .

٢ ـ الجهل بفائدة القيم والتعاليم الأخلاقية والدينية ، وعدم معرفة دورها في إصلاح النفس وسعادة المجتمع ، ويتفرع عن ذلك الجهل بخطر الذنوب وأثرها في شقاء الفرد وانهيار المجتمع ، كما حدثنا الله سبحانه عن ذلك في كتابه المجيد حينما أخبرنا عن أمم وشعوب قديمة قد كفرت بأنعم الله ورفضت هدي السماء بسبب جهلها بجدوى رسالات الأنبياء وأهميتها في تربية الذات وتنظيم الحياة ،فقال :

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ (١) .

وقال :

﴿ وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ (٢) .

وقال :

﴿ قل إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني اراكم قوما تجهلون ﴾ (٣) .

---

(١) الانبياء / ٢٤ .
(٢) النحل / ٨٠ .
(٣) الاحقاف / ٢٣ .

وبالمقابل نسمع ونقرأ ـ اليوم ـ وفي هذا العصر المـــادي عن بعض العلماء الماديين في الغرب ممن أعلنوا عن إيمانهم بالله تعالى وبالقيم الدينيـة بعد أن توصلوا إلى فائـــدة ذلك وأدركوا أهميته عن طريق البحث العلمي الموضوعي الذي هداهم للايمـــان ، فكشف لهم عن تطـــابق العلم مع الدين [1] .

والخلاصة : ان العلم يقابل الجهل ، فكما ان الجهل بضرر الشيء يؤدي إلى عدم الاحتراز منه ، فإن العلم بضرره غالباً ما يكون سبباً لاجتنابه .

٣ ـ فقدان التربية الصالحة، وهو من أبرز عوامل الجريمة والانحراف فقد يكون الانسان مؤمناً بالله سبحانه ، عالماً بخطر الذنوب وأضرارها ، ولديه وضوح كامل عن آثارها السيئة على النفس والمجتمع ، ولكنه مع ذلك يقع في المعصية لأنه يفقد التربية الصالحـة التي هي أهم مقومات الصمود أمام مغريات الحياة وإلحاح الشهوات ، فالاطلاع على المفـــاهيم الاسلامية والتعرف عليها غير كاف في ردع الانسان عن المعاصي ، ويجب أن نفرق هنا بين فهم الاسلام وبين التربـي بأخلاقه وقيمه ، فما أكثر الذين يحسنون الكلام عن الاسلام وأحكامه ويبدعون في تنظير الأفكار والمفاهيم الاسلامية وهم أبعد الناس عن الالتزام بأحكام الدين في واقعهم العملي .

والتربية الصالحة هي العملية الهادفة التي تترجم قضيـة الايمـان بالله تعالى والعقيدة الاسلامية إلى سلوك نظيف ومثالي، وتحول التفكير النظري

---

(١) للمزيد اقرأ كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) و (العلم يدعو للايمان)

بخطورة الذنب إلى طبع محكم وسجية طيبة في سلوك الفرد والأمة .

٤ ـ فقدان النظام الاجتماعي العادل : فللانسان ـ كما نعلم ـ حاجاته الطبيعية والضرورية في الحيـاة ، من المـاكل والمشرب والمسكن والجنس وغير ذلك من مطاليب الحياة الملحة والتي يبذل من أجل الحصول عليها جهوداً شاقة ومضنية ، فإن حالت دون توفرها الحواجز كما يحصل اليوم لأكثر الناس في ظل الأنظمة الجائرة الظالمة فقد يلجأ الانسان عند ذلك إلى أساليب ملتوية لـكي يشبع حاجاتـه ، فيسرق ويزني ويقتل ويكذب ويحتال ويغش ... وقد لا تستطيع حتى التربية الصالحة أن تقف حاجزاً أمام جوعة الغرائز ، ونداء الشهوات المحرمة إذا لم تلبى مطاليبها الملحة والضرورية بطريق مشروع ، فالانسان رهن غرائزه ـ كما يقول بعض علماء النفس ومن هنا نفهم معنى كلمة الامام علي عليه السلام المشهورة « كاد الفقر أن يكون كفراً » .

كيف عالج الاسلام مشكلة الذنب ؟

وبعد أن تحدثنا عن الذنب وآثاره السيئة العامة وأنواعه ، وأسباب الوقوع فيه ، نواجه ـ الآن ـ وبشكل منطقي السؤال التالي :

كيف يعالج الاسلام مشكلة الاقدام على المعصية ، وما هي طريقته الخاصة للقضاء على أسبابها ومصادرها ؟

ونجيب : بأن الاسلام طرح لمواجهة مشكلة الاقدام على المعـــاصي خطتين تربويتين ، خطة « وقائية » وأخرى « علاجية » ووضع لكل

٣ ـ النظام الاجتماعي والسياسي العادل الذي يحقق للانسان حياة اقتصادية سعيدة وعيشاً موفوراً عزيزاً كريماً ، فلا يتركه يعاني من آلام الفقر وضغوط الحياة وإلحاح الشهوات المحرمة ، بل يوفر له كل حاجاته الضرورية بطرق نظيفة ومشروعة ، ولا يمكن أن نتصور مثل هذا النظام العادل إلا في ظل حكومة إسلامية تطبق أحكام الاسلام بشكل كامل وشامل .

ومن البديهي أن هذه الأساليب الوقائية لا يمكن أن تؤدي دورها التربوي بشكل صحيح وناجح في معالجة ظاهرة الاقدام على الذنوب والقضاء على أسبابها إذا كانت منفصلة عن بعضها ، فلكي يكتب لهذه الأساليب الوقائية النجاح في مهامّها التربوية على الصعيد الفردي والاجتماعي ، لابدّ من أن تعمل مترابطة في ظل نظام إسلامي حاكم ، وبهذه الطرق الثلاثة يقضي الاسلام على جميع العوامل التي تمهّد لصنع الجريمة والوقوع في شرك المعاصي .

ثانيا : الخطة العلاجية

وهي التي وضعها الاسلام لمعالجة مشكلة الانحراف بعد أن يتورط الانسان بالمعصية والجريمة ، وذلك بالاعتماد على أساليب رئيسية أربعة ، وهي كما يلي :

١ ـ العقاب الإلهي : ونقصد به عقاب الله تعالى للعاصين من عباده ـ في الدنيا قبل الآخرة ـ لغرض صدهم عن المعاصي ، وتذكيرهم برقابته

الدقيقة لهم ، وبعض الأحيان تعتبر النتائج السيئة للذنوب كقلة الرزق ونزول البلاء التي يلاقيها المذنبون من جملة الأساليب التربوية العلاجية التي يبتلي الله سبحانه عباده بها لصدهم عن المحرمات وتربيتهم على الطاعات.

قال الله سبحانه متحدثاً عن هذا اللون من التربية الالهية للمذنبين في الدنيا :

﴿ **وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون** ﴾ (١) .

وقال :

﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم** ﴾ (٢) .

وقال :

﴿ **لنذيقهم من العذاب الادنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون** ﴾ (٣) .

ومن الواضح ان رجوع العباد إلى الله سبحانه لا يكون إلا بالتوبة ولا يقع ذلك منهم إلا في الدنيا لأن المذنب بعد الممات ينسد بوجهه باب التوبة كما ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ **قل رب ارجعوني لعلي اعمل صالحا فيما تركت ، كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ (٤) .

---

(١) الزخرف / ٤٨ .
(٢) النور / ٦٣ .
(٣) السجدة / ٢١ .
(٤) المؤمنون / ١٠٠ .

ومما يدلل على وجود مثل هذا العقاب الرباني للعاصين في الدنيا من أجل ردعهم ، ما روي عن الامام الصادق عليه السلام انه قال :

« إذا أراد الله عزّ وجل بعبد خيراً عجّل له عقوبته في الدنيا ، وإذا أراد بعبده سوءاً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافى بها يوم القيامة »[1] .

ولكن عندما يطغى الناس في عصيان الله تعالى ، ولا ينفع معهم عقابه وتذكيره لهم ، فإنه عند ذلك يشدّد عقابه عليهم في الدنيا ويذيقهم عذاباً أليماً في الآخرة ، كما قال سبحانه :

﴿ فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم عذابا أليما في الدنيا والآخرة ، وما لهم في الارض من ولي ولا نصير ﴾[2] .

٢ ـ العقاب الاجتماعي ، وهو الذي يلقاه مرتكب المعاصي من الرقابة الاجتماعية الصارمة في مجتمع التوحيد .

والرقابة الاجتماعية في الاسلام مسؤولية شرعية يتحملها كل مسلم من أبناء المجتمع الاسلامي ، فإذا وجدوا بينهم من يعمل بالمعاصي ويرتكب السيئات ، وجب عليهم نهيه وزجره عن ذلك بأعنف الأساليب وأكثرها تأثيراً وردعاً له ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » .

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٤٥ .

(٢) التوبة / ٧٤ .

وتشمل هذه المسؤولية مواجهة المنكر في المراكز الاجتماعية الثلاث « الاسرة » و « المجتمع » و « الدولة » ، ومما دلّ على وجوبها في داخل الأسرة حديث الامام الصادق عليه السلام حينما سئل عن تفسير الآية « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ... » فقالوا له : كيف نقي أهلنا ؟ قال :

« تأمرونهم وتنهونهم » [1] .

ومما دل على وجوب الرقابة الاجتماعية في داخل المجتمع الاسلامي ما روي عن الامام الحسن عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال :

« لا يحل لعين مؤمنة ترى الله يعصى فتطرف حتى تغيره » [2] .

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله ، قال :

« ان المعصية إذا عمل بها العبد سراً لم يضر إلا عاملها ، فإذا عمل بها علانية ولم يغيّر عليه أضرت بالعامة » [3] .

ومما دلّ على وجوب الرقابة الاجتماعية على السلطة الاسلامية لمنعها من الانحراف حديث مشهور لرسول الله صلى الله عليه وآله قال فيه :

« ان أفضل الجهاد ، كلمة عدل عند إمام جائر » [4] .

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٤١٨ .
(٢) الوسائل / ج ١١ ، ص ٣٩٩ .
(٣) الوسائل / ج ١١ ، ص ٤٠٧ .
(٤) الوسائل / ج ١١ ، ص ٤٠٠ .

وفي حديث آخر يرويه الامام الحسين سيد الشهداء عن جده رسول الله ﷺ قال فيه :

« يا أيها الناس ان رسول الله قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً لعهده مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله »[1] .

ولم يترك الاسلام هذه المسؤولية الاجتماعية بدون أن يضع لها حدوداً تهذبها وتوجهها الوجهة الصحيحة ، بل وضع لها أحكاماً خاصة بها وبحثها فقهاء الاسلام في باب « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

وضرب لنا الاسلام في مجتمع الرسول القائد ﷺ أروع الأمثلة عن مستوى الانضباط الاجتماعي والالتزام الدقيق من قبل المسلمين بهذه المسؤولية الشرعية العامة حينما خرج رسول الله ﷺ إلى القتال في معركة تبوك ، وقد تخلف عنه قوم من المنافقين ونفر من المؤمنين كذلك ، ولكن المؤمنين التحقوا به بعد ذلك وبقي في المدينة ثلاثة نفر منهم ، وهم « كعب بن مالك الشاعر ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية الرافعي » ، ولنترك الكلام لكعب نفسه يحدثنا عن هذه القصة الرائعة ، قال كعب :

« ما كنت قط أقوى مني في ذلك الوقت الذي خرج فيه رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وما اجتمعت لي راحلتان قط إلا في ذلك اليوم ، وكنت أقول:

---

(١) الكامل في التاريخ / ج ٤ ، ص ٤٨ .

أخرج غداً أو بعد غد ، وتوانيت ، وثقلت بعد خروج النبي ﷺ أياماً أدخل إلى السوق ولا أقضي حاجة ، فلقيت هلال بن أميـة ، ومرارة بن الربيع وكانا قد تخلفا أيضاً فتوافقنا أن نبكر إلى السوق، فبكرنا ولم نقض حاجة ، فما زلنا نقول : نخرج غداً ، أو بعد غد ، حتى بلغنا إقبال رسول الله ﷺ فندمنا .. فلما وافى رسول الله ﷺ استقبلناه نهنئه بالسلامة فسلمنا عليه ، فلم يردّ علينا السلام وأعرض عنا، وسلمنا على إخواننا فلم يردّوا علينا السلام ، فبلغ ذلك أهلونا فقطعوا الكلام معنا ، وكنا نحضر المسجد فلا يسلم علينا أحد ولا يكلمنا ، فجاءت نساؤنا إلى رسول الله ﷺ فقلن : قد بلغنا سخطك على أزواجنا!! أفنعتزلهم ؟! فقال رسول الله ﷺ لا تعتزلنهم ولكن لا يقربوكن » .

فلما رأى كعب بن مالك وصاحباه ما قد حلّ بهم قالوا : ما يقعدنا بالمدينة ولا يكلمنا رسول الله ﷺ ولا اخواننا ولا أهلونا ؟ فهلموا نخرج إلى هذا الجبل فلا نزال فيه حتى يتوب الله علينا أو نموت ، فخرجوا إلى « ذباب » وهو من جبال المدينـة ، فكانوا يصومون النهـار ويحيون الليل بالعبادة ، وكان أهلوهم يأتونهم بالطعام فيضعونه ناحية ثم يولون عنهم ولا يكلمونهم ، فبقوا على هذا أياماً كثيرة يبكون في الليـل والنهـار ويدعون الله سبحانه أن يغفر لهم ، فلما طال عليهم الأمر ، قال لهم كعب : يا قوم قد سخط الله علينا ورسوله ، وقد سخط علينـا اخواننـا وأهلونا ، فلا يكلمنـا أحد منهم ، فلم لا يسخط بعضنـا على بعض ، فتفرقوا في الجبل وحلفوا أن لا يكلم أحد منهم صاحبه ، حتى يموت أو يتوب الله عليه ،

فبقوا على ذلك ثلاثة أيام ، وكل واحد منهم في ناحية من الجبل لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلمه ، فلما كانت الليلة الثالثة ورسول الله ﷺ في بيت أم سلمة نزلت توبتهم على النبي ﷺ في قول الله تعالى :

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لاملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم ﴾ [1] .

فهرع المؤمنون إلى جبل « ذباب » فرحين يحملون البشرى لكعب وصاحبيه بقبول الله تعالى توبتهم فلما وصلوا اليهم وجدوهم في حالة من الذوبان في طاعة الله والتسليم له ما لا يتصف بها إلا الأولياء والمقربون ، فلما بشروهم جهش الثلاثة بالبكاء وفاضت دموعهم حياء من الله تعالى وسجدوا شكراً له على جميل عفوه وعظيم منه عليهم .

وبهذه القصة [2] التي صورت لنا أثر الايمان بالله في الجماعة الاسلامية يتجلى بشكل واضح دور الرقابة الاجتماعية والعقاب الجماعي في ردع العاصين لأوامر الله تعالى وأثر ذلك في تربية المذنبين وعودتهم من جديد إلى الخط الاسلامي الصحيح والسلوك الانساني النظيف .

---

(١) التوبة / ١١٧ - ١١٨ .

(٢) راجع القصة في الميزان / ج ٩ ، ص ٣١ ، وفي ظلال القرآن ج ٤ ، ص ٣٤٥ وما بعدها .

٣ ـ رقابة الدولة الاسلامية الحاكمة ، التي تترجم موقفها السلبي من المجرمين والمذنبين الخارجين عن حدود الله تعالى في « العقاب القضائي » وهو عقاب صارم وشديد يعينه « الحاكم المسلم العادل » بحق مرتكبي الذنوب والجرائم في المجتمع الاسلامي وفقاً لأصول إثبات الجريمة في القضاء الاسلامي ، وقد تحدث عن ذلك الفقهاء ، مطولاً في باب « الحدود والديات والقصاص والتعزيرات » وقال الامام الخميني وهو بصدد الحديث عن عقوبة مرتكب الكبائر :

« ان كل من ترك واجباً أو ارتكب حراماً فللامام عليه السلام ونائبه تعزيره بشرط أن يكون من الكبائر [١] .

٤ ـ التوبة ، وهي باب آخر من أبواب الاصلاح ومكافحة المعصية ، فتحها الله لعباده لإنقاذهم من التمادي في المعصية والجريمة ، ومن حالة القنوط واليأس من رحمة الله تعالى ، ولوضع حد لانحراف المذنبين وإجرام العاصين ولمساعدتهم على العودة إلى حياة الطهر والاستقامة »[٢] ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ﴾ [٣] .

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٧٧ .

(٢) المعصية والشقاء / ص ٣٤ « بتصرف » .

(٣) الزمر / ٥٣ .

هذه هي أهم الطرق والأساليب العلاجية التي رسمها الإسلام لمكافحة الجرائم والمعاصي والقضاء على أضرارها في النفس والمجتمع ، والتوبة هي من جملة الوسائل العلاجية التي يعتمدها دين التوحيد للقضاء على مساوىء الذنوب وأضرارها .

ولم تكن التوبة علاجاً سطحياً أو تنفيساً وقتياً للمذنبين أو المجرمين، وإنما هي علاج جذري وتغيير أساسي في حياة العصاة والجناة على الصعيد الفردي والاجتماعي ... علاج له أساليبه الخاصة وطرقه التربوية المتعددة التي رسم معالمها دين القرآن الكامل من أجل أن تقضي على مظـــاهر الاجرام والمعصية ويطهر الغارقين في الآثام والمدمنين على الخطاياوينقذهم من خطر التمـرد على الله تعـــالى ، فمن الضروري إذن أن نتعرف على أطروحة الإسلام التربوية التي وضعها للتائبين من العصاة والمجرمين .

الفصل الثاني

التـــوبـــة

في التشريع الاسلامي

التوبة لغــة وشرعاً

التوبة لغة تعني : الرجوع والانابة ، يقال : تاب فـلان أي رجع عن ذنبه،فهو تائب[1] وهي تنسب للعبدتارة ، ولله سبحانه تارة أخرى ، وعند انتسابها للعبد يقصد بها رجوعه إلى ربه ـ عن المعصية إلى الطاعة ـ نادماً مستغفراً ذنبه ، أما انتسابها لله سبحانه فالمراد به رجوعه ـ جل ذكره ـ على عبده من العقوبة إلى العفو واللطف والتفضل عليه بقبول توبتـــه والصفح عن زلته ، وقد ذكر القرآن الكريم كلا المعنيين للتوبـة في آيات متعددة منها قوله تعالى :

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم ﴾[2] .

أما معنى التوبة شرعاً فهي ـ كما عرفها الشيخ الأنصاري ـ «الرجوع

---

(١) المعجم الوسيط / ج ١ ، مادة « توب » .

(٢) التوبة / ١١٧ ـ ١١٨ .

إلى صراط الله المستقيم بعد الانحراف عنه »[1] ، وهي عكس الإصرار على الذنب والجريمة ، ومن هذا المنطلق عرفها علماء الأخلاق بقولهم « هي ترك المعاصي في الحال والعزم على الابتعاد عنها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في حق الله وحقوق الآخرين » ، وقال الإمام أمير المؤمنين : « التوبة ندم بالقلب ، واستغفار باللسان والقصد على أن لا يعود »[2] ، وهذا التعريف أفضل وأكمل بيان جامع وبليغ لحقيقةالتوبة، وعليه المدار في البحث العلمي والفقهي والأخلاقي في دراسة العلماءلموضوع التوبة[3] ، وعلى ضوء هذا التعريف الجامع لا يصح اعتبار الندم عنواناً تاماً لحقيقة التوبة ، ومن فعل ذلك من علماء الأخلاق وقع في خطأ كبير لأن الندم هو أحد المراحل النفسية للتائب بل هو أولها وتأتي بعدهمرحلة « ترك المعاصي » التي يصبح بها الإنسان حقاً تائباً ثم « العزم على عدمالعود إلى المعصية » التي تكشف عن الإخلاص في التوبة ، فالندم وحده إذاً ليس هو التوبة الكاملة على حقيقتها ، بل هو دافع من دوافعها ومقوم من

---

(١) المكاسب / ٣٣٥ .

(٢) تحف العقول ، ص ١٤٩ .

(٣) وعلى ضوء هذا النص ونصوص أخرى مطابقة له في الكتاب وعن المعصومين (ع) تساءل الشيخ الأنصاري هل الاستغفار باللسان جزء واجباً في التوبة أم لا ؟ وكذلك فعل مثله السيد البجنوردي في القواعد الفقهية ، رسالة التوبة ج ٧ ... والظاهر من كلماتهم انه لا يعتبر جزءاً واجباً معها .. راجع المكاسب ، ص ٣٣٥ .

مقوماتها ، أما قول النبي ﷺ « الندم توبـــة »[1] فهو محمول على حث المذنبين وتشجيعهم على التوبة ، وإن كان بأضعف الحالات التي هي النـدم وحده دون العزم على الترك ، فهذه الحالة من الإنابة إلى الله تعالى مع ضعفها فهي مقبولة ، لأنها من المؤمل أن تؤدي بالمذنبين النادمين إلى العزم الأقوى وهو التوبة الحقيقية التي من ورائها النية المخلصة والإرادة الصلبة .

الخطيئة والتوبة في الاسلام

قال الله سبحانه :

﴿ وقلنا لآدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنهما فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا بآياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[2] .

من هذا اليوم الذي كبا فيه أبو البشرية « آدم » عليه السلام عنـــد أول امتحان في حياته[3] تنطلق الأديان السماوية في طرح وتحديـد تصوراتهـا

---

(١) المحجة البيضاء ، ج ٧ ، بحث التوبة ، ص ٥ .

(٢) البقرة / ٣٥ ـ ٣٩ .

(٣) وللامامية في معصية آدم أقوال كثيرة كلها تذهب إلى تنزيهه من المعصية المتعارفة ، وقد استعرض العلامة الطباطبائي جملة منها في ميزانه ومنها مارواه=

الدينية حول فكرة الخطيئة والتوبة ، ولا يوجد في أصل الديانات السماوية أي اختلاف في فهم الخطيئة والتوبة ، وإنما جاء الاختلاف بين الاسلام والديانتين الموسوية والعيسوية من تحريف ومتاجرة الرهبان والقساوسة بالديانتين المذكورتين ، فالدين المسيحي المحرف ـ مثلاً ـ يلخص فهمه لفكرة « الخطيئة والتوبة » في اعتبار المسيح عليه السلام ابناً لله ـ تعالى عما يصفون ـ وقد صلبه سبحانه تخليصاً للبشرية من خطيئة أبيهم آدم عليه السلام التي بقيت تلاحقهم جميعاً حتى كفر عنهم عيسى بن مريم عليه السلام ، وعلى أساس هذه النظرة الشوهاء لمفهومي « الخطيئة والتوبة » التي أضفت عليها الكنيسة طابع القداسة أخذت تتعامل مع المذنبين من أنصارها فتوجب على كل مذنب منهم الوقوف بين يدي القسيس ممثل الله في الأرض ـ على حد زعمهم ـ ليعترف له بكل جرائمه التي ارتكبها سراً ليمنحه حق التوبة بعد أن يجري عليه مراسم دينية وغسل خاص في إحدى زوايا الكنيسة .

وقد استغل رجال الدين المسيحيين فكرة « الخطيئة والتوبة »

=عن مولانا الإمام الرضا عليه السلام في رده على محمد بن الجهم في مجلس المأمون حيث قال له : « ... أما قوله « وعصى آدم ربه فغوى » فان الله عزوجل خلق آدم حجة في أرضه وخليفة في بلاده لم يخلقه للجنة ، وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض لتتم مقادير أمر الله عزوجل ، فلما أهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة عصم بقوله عزوجل : « ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » الحديث ـ الميزان / ج ١ ، ص ١٤٥ ، طبعة الاعلمي .

استغلالاً بشعاً من أجل إرواء شهواتهم المكبوتة داخل أقبيـــة الكنائس والدير ، فأخذوا عن طريق تطهير المذنبين من خطاياهم يرتكبون أفظع الجرائم الجنسية على أعتاب حوض التوبـــة ، وهم يجرون مراسيم الغسل الخاصة بالمذنبين التائبين من الرجال والنساء ، وسحروا كذلـــك فكرة التوبة لإشباع جشعهم المـادي وأطماعهم الدنيوية ، فبـاعوا باسمها صكوك الغفران على المسيحيين بأغلى الأثمان بحجـــة ان من لم يمتلك منها صكاً لا يقبل الله توبته ولا يشم ريح الجنة .

وعندما أرسل الله سبحانه رسالته إلى خاتم أنبيائه محمـد ﷺ أعلن بصراحة انتهاء دور الرسالات السماوية التي سبقت رسالة الاسلام ، وأمر جميع أصحاب الديانات السابقةبالتعبد لله سبحانه بالدين الاسلاميوالالتزام بكل قوانينه ، فقال :

﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، فهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (١) .

وحينما جاءت رسالة الاسلام الكاملة الخـــالدة نسفت كل التصورات الموحولة الساقطة التي اختلقتها الاسرائيليات حول فكرة الخطيئة والتوبة، وأول خطوة قام بها القرآن الكريم بهذا الشأن ، انـه بدأ بفضح أساليب المتاجرين بالدين والقيم الالهية من رجال الديانتين اليهودية والمسيحية الذين كتموا آيات التورات والانجيل الصحيحة ، ونبـــذوها وراء ظهورهم ،

---

(١) آل عمران / ٨٥ .

وحرّفوا بعضها من أجل أن يشتروا بها ثمناً قليلاً على حد تعبير القرآن الذي هاجمهم بقوله :

﴿ وإذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ﴾ (١) .

وقال :

﴿ يا ايها الذين آمنوا ان كثيرا من الرهبان والاحبار ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ (٢) .

ثم أعلن الاسلام بوضوح انه ليس هناك معصية باقيـــة على آدم من خطيئته الأولى بعد أن تلقى « من ربه كلمات فتاب عليه » ، وليس هناك خطيئة موروثة أو مفروضة على أبناء آدم قبل مولدهم يتحملون مسؤوليتها في طول حياتهم ويلاحقهم بسببها الشعور الدائم بالذنب إن لم يتوبوا منها ـ كما تقول المسيحية المحرّفة ـ فمعصية آدم معصية شخصية ، وهو وحده يتحمل مسؤولية الخلاص منها كما فعل ذلك بالتوبة المباشرة ، وهكذا كل واحد من أبناء آدم يتحمل تبعات ذنوبه بنفسه ولا يتحملها أحد غيره ، كما يقرر ذلك القرآن الكريم :

﴿ ومن يكسب اثماً فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما ﴾ (٣) .

فلا داعي إذن أن يكون المسيح فداءاً لتلك الخطيئة التي وقع بها

---

(١) آل عمران / ١٨٧ .
(٢) التوبة / ٣٤ .
(٣) النساء / ١١١ .

أبو البشرية آدم ، ما دام هو الذي ارتكبها ـ لا المسيح ـ وقـــد تاب منها وقبلت توبته .. وطريق التوبة في دين الإسلام دائماً مفتوح أمام المذنبين الراجعين إلى الله تعالى :

﴿ ومن يعمل سوءاً او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾[1]

فدين التوحيد يعلن ـ في هذه الآية ـ عن فتح باب التوبة لعامة المذنبين من أبناء آدم ، فلا يخصص قبولها بطبقة من المذنبـين دون أخرى ، سواء كانت هذه الطبقة تمثل رجال الدين أو تمثل الرأسماليين ، أو غيرهم ، كما لا يحدد الاسلام قبول التوبة بمكان دون آخر ، فالتوبة مقبولة لديه سواء أعلنها المذنب في البيت أو في الشارع أو في المسجد ، في أثناء الأكل أو في حالة العبادة ، المهم أن تتصف بالشروط الشرعية المطلوبة ، وليس من شروط قبولها إعلانها أمام رجال الدين فليس في المجتمع الإسلامي رجال دين ، بل يوجد علماء في الدين ، وبإمكان كل مسلم أن يصبح عالماً بأحكام الدين ... فلا يوجـد في دين التوحيد من يمثـل الله في الأرض ، حتى لو كان من علماء الدين ، ومهما بلغت درجة علمه وتقواه ونزاهتـــه ، فلا داعي إذن أن يعترف المذنب أمام أحد من الناس ، بل لقد حرّم الاسلام على المذنبين فضح أنفسهم والتحـدث عن ذنوبهم علانيـة للآخرين ، فإن ذلك يعتبر هتكاً لستر الله سبحانه عليهم ، وقد أوضح ذلـــك رسول الله ﷺ بقوله :

---

(١) النساء / ١١٠ .

« المستتر بالحسنة يعدل سبعين حسنة ، والمذيع بالسيئة مخـــذول والمستتر بها مغفور له »[1] .

ومن هذا المنطلق نصح الاسلام المذنبين التائبين بالتستر على خطاياهم وآثامهم وأن لا يظهروها للآخرين حتى لو كان بهدف التطهر من الذنوب، وينقل بهذا الصدد أن رجلاً من المسلمين جاء إلى النبي ﷺ معترفاً أمامه بما ارتكبه من جريمة الزنا طالباً منه إقامة الحد عليه ليطهره من تبعات خطيئته هذه ، فتألم الرسول ﷺ من هذا التصرف وقال : « لو استتر ثم تاب كان خيراً له »[2] .

ويتعدى الاسلام حدود الحفـــاظ على كرامة الفرد ، فاعلن حرمة إشاعة الفساد في المجتمع من أجل الحفاظ على كرامته وقيمـه ونزاهتـه ، ومن هنا ندد بمن يسلط الأضواء على عيوب الناس ويكشف عن عوراتهم معتبراً هذا العمل من جملة أسبـاب إشاعة الفساد والفـاحشة في أوساط المجتمع وهو من أكبر المحرمات العامة ، وكان النبي ﷺ يقول :

« لا تطلبوا عثرات المؤمنين ، فإن من تتبع عثرات أخيه تتبع الله عثراته ، ومن تتبع الله عثراته يفضحه ولو في جوف بيته »[3] .

وكان مما كتبـه الإمام علي عليه السلام لواليـه على مصر (الأشتر

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٢٨ .
(٢) الوسائل ، ج ١٨ ، ص ٣٢٨ .
(٣) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٣٥٥ .

النخعي) قوله :

« وليكن أبعد رعيتك منك وأشناهم عندك أطلبهم لمعايب الناس ، فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها ، فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فإنما عليك تطهيرها ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك. »[1]

وكان الإمام الضادق عليه السلام يقول لتلامذته :

« من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ومن جاءنا يبدي عورة سترها الله فنحوه »[2] .

متى يعتبر الانسان مذنباً ؟

ومع كل التسامح الذي ذكرناه في تعامل الإسلام مع المذنبين فإنه مع ذلك لا يعتبر الإنسان مذنباً يستحق العقوبة إلا إذا توفرت فيه أربع صفات وشروط رئيسية حين إقدامه على المعصية أو الجريمة، والشروط هي كما يلي[3] :

الشرط الأول : أن يكون المذنب قد بلغ سن التكليف الشرعي فإذا أقدم على المعصية قبل ذلك فلا يعد مذنباً ، لأنه غير مخاطب بالأحكام

---

(١) نهج البلاغة / ص ٣٢٩ ـ صبحي الصالح .

(٢) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٣٥٥ .

(٣) هذه الشروط لم تبحث مستقلة ، وإنما بحثت في أبواب شتى وفي مناسبات مختلفة ، في الفقه الإسلامي .

الشرعية حسب تعبير الفقهاء ، نعم قد يتحمل ـ في الدنيا ـ بعض الأحيان مسؤولية ما ارتكبه من جرم أو اعتداء على حقوق الناس كما يقرر ذلك القضاء الإسلامي الذي روعيت في أحكامه وقوانينه مصلحة حفظ النظام الإجتماعي وتربية الفرد والمجتمع .

الشرط الثاني : أن يكون المذنب عالماً بحرمة ما ارتكبه من جرم وما اقترفه من معصية ، أما إذا كان ناسياً أو مخطئاً أو مشتبهاً أو جاهلاً ، وكان جهله من غير تقصير ولا إهمال فلا يعتبر مذنباً شرعاً ولايحاسبه الله تعالى يوم القيامة على فعله هذا ، لأن ذلك خلاف قاعدة اللطف بعباده ، والتي هي من صفاته الكمالية ـ جل ذكره ـ « وهو اللطيف الخبير »[1] ، نعم قد تناله بعض العقوبات القانونية في الدنيا انطلاقاً من المصلحة الإسلامية التي أشرنا اليها في الشرط الأول .

الشرط الثالث : أن يكون المذنب عاقلاً حين إقدامه على المعصية ، وقد ارتكبها بكامل وعيه متوجهاً إلى ضررها قاصداً فعلها ، وهو مايعبر عنه في القانون الوضعي ارتكاب الجريمة مع سبق الإصرار .

وبهذا الشرط يسقط العقاب عن المجنون وما شابهه والمكره وما يلحق به ، لأن الأول يفتقر إلى العقل ، والثاني لم يكن قاصداً المعصية ، بل لم يقدم عليها بملء إرادته .

الشرط الرابع : أن يكون المذنب مضطراً إلى ارتكاب المعصية

---

(١) الملك / ١٤ .

والتلبس بالجريمة « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه »[1] .

ولهذا لا تقطع يـد السارق إذا سرق من أجل دفع جوعتـه[2] ، ولا يقـام الحد على من شرب الخمر لحفظ نفسه من هـلاك العطش أو من مرض شديد[3] .

فإذا تمت هذه الشروط في مرتكب الجرم وقت تلبسه به يصبح حينئذ مذنباً من جهة شرعية ، وتجب عليه المبادرة للتوبة .

ويستدل فقهياً على ضرورة توفر هذه الشروط فيمن يسمى عاصياً بالنصوص الشرعية المعتبرة ، والتي منها قوله سبحانه:

﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا او أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنـا واغفر لنا وارحمنا ﴾[4] .

وقوله سبحانه :

﴿ انما حرم عليكم الميتـة والدم ولحم الخنزير وما اهل بـه لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم ﴾[5] .

وقوله تعالى :

---

(١) البقرة / ١٧٣ .
(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٨٢ .
(٣) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٧٩ .
(٤) البقرة / ٢٨٦ .
(٥) البقرة / ١٧٣ .

﴿ ومن كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب الله ، ولهم عذاب عظيم ﴾ [1] .

وروي عن أهل البيت عليهم السلام إحاديث كثيرة تشير إلى هذه الشروط ، وأهمها ما ورد عن رسول الله ﷺ في حديث الرفع الذي قال فيه :

« رفع عن امتي أربع خصال : خطاؤها ونسيانها وما اكرهوا عليه، وما لم يطيقوا ، وذلك قول الله عزوجل : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) ، وقوله (الا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان » [2] .

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ جاء فيه :

« وضع عن امتي تسع خصال : الخطأ والنسيان وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطروا اليه ، وما استكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد » [3] .

وجوب التوبة على المذنبين

إذا أقدم الإنسان على المعصية ، وكان بالغاً عاقلاً بحرمة ما ارتكبه غير

---

(١) النمل / ١٠٦ .
(٢) الكافي / ج ٢ ، ص ٤٦٢ – ٤٦٣ .
(٣) نفس المصدر ة

مضطر اليه ولا مجبور عليه ... أي أقدم على الحرمة في ظرف كانت تتوفر فيه جميع الشروط التي ذكرناها سابقاً ... يعتبر حينئذ عاصياً وتصبح التوبة واجبة عليه بدليلين :

الأول ـ الدليل الشرعي : وهو المستفاد من النصوص الشرعية ، فقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على وجوب التوبة على المذنبين ، وسنذكر هنا جملة من هذه الآيات المباركة .

قال الله سبحانه :

﴿ وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ (١) .

﴿ يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار .. ﴾ (٢) .

وهاتان الآيتان يظهر منهما توجيه الخطاب إلى المذنبين من المؤمنين ، أما المجرمون فإن الله سبحانه كثيراً ما كان يحذرهم في آياته عذاباً أليماً وينذرهم عاقبة أعمالهم السيئة ، ثم يدعوهم إلى التوبة ... وقد لوحظت هذه اللهجة في مخاطبته سبحانه للمجرمين في أكثر الآيات التي تتحدث عن كبائر الذنوب وأعمال المجرمين البشعة .. منها قوله عزّ وجل :

﴿ ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ (٣) .

---

(١) النور / ٣١ .
(٢) التحريم / ٨ .
(٣) البروج / ١٠ .

﴿ ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فاولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم ﴾ [1] .

وعلى ضوء هذه الآيات القرآنية وغيرها من النصوص الشرعية وأدلة استنباط الحكم الشرعي [2] الأخرى استفاد الفقهاء الأحكام الشرعية المتعلقة بالتوبة ، فحكموا بوجوبها على كل من خالف أمراً أو ارتكب حرمة ورد حكمها في الإسلام ، وكان بالغاً عاقلاً غير مضطر ولا مجبور على المعصية ، وعلى ضوء هذه الأدلة حدد قائد الأمة الإسلامية الإمام الخميني أحكام التوبة للمسلمين جميعاً في رسالته العملية ، فقال :

« من الواجبات التوبة من الذنب ، فلو ارتكب حراماً أو ترك واجباً تجب التوبة فوراً ، ومع عدم ظهورها منه وجب أمره بها ، وكذا لو شك في توبته ، وهذا غير الأمر والنهي بالنسبة إلى سائر المعاصي ، فلو شك في كونه مصراً أو علم بعدمه لا يجب الإنكار بالنسبة إلى تلك المعصية ، لكن يجب بالنسبة إلى ترك التوبة » [3] .

وكما أن التوبة واجبة على المذنب فوراً ـ كما يظهر من كلام الإمام ـ

---

(١) البقرة / ١٦٠ .

(٢) اختلف الفقهاء في دليل وجوب التوبة هل هو وجوب إرشادي عقلي أم شرعي مولوي ، ويظهر من عبارات الشيخ الأنصاري في المكاسب انه وجوب إرشادي عقلي وبذلك قال أكثر العلماء .

(٣) تحرير الوسيلة / ج ١ ، ص ٤٧٠ ، مسألة (٥) .

كذلك يجب على كل مسلم قد علم بشخص مرتكب للمعاصي أن ينهاه عن ذلك ، ويأمره بالتوبة ، ولا يحق له أن يتساهل في هذه المسؤولية ويترك العاصي حتى يتأكد من توبته .

ومن الملفت للنظر هنا حقاً ، ان قائد الأمة الإسلامية الإمام الخميني قد أعطى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ المتعلقان بترك التوبة ـ حكماً استثنائياً عن بقية المنكرات الأخرى ، فإن سائر المنكرات ـ في نظره ـ لو احتمل المسلم بأن مرتكبها مصرّاً على فعلها لا يجب عليه أن يبادر إلى زجره ونهيه عنها ، إلا إذا علم وقطع بأنه يريد أن يرتكبها فعلاً [1] ، على العكس من تارك التوبة ، فيجب عليه أن يأمره بالتوبة على أي حال ، حتى لو شك بعدم توبته ، فإذا عرفت شخصاً مذنباً واحتملت أنه قد تاب ، فإن هذا الاحتمال لا يسقط وجوب أمرك له بالتوبة ، بل يجب عليك أن تأمره بها ولا تتركه حتى تعلم أنه قد تاب فعلاً .

الثاني ـ الدليل العقلي [2] : وهو الذي استدل به علماء الأخلاق والفقهاء على وجوب التوبة فوراً على المذنبين ، وخلاصته :

انه لا ريب في وجوب التوبة على المذنبين فوراً ، لأن الذنوب بمنزلة السموم المضرة بالبدن ، وكما يجب على شارب السم المبادرة إلى الاستفراغ

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ١ ، ص ٤٧٠ ، مسألة (٦) .

(٢) هذا الدليل هو الأصل عند الفقهاء لإثبات وجوب التوبة ، وقد أخرناه لغرض فني .

وتناول الدواء لإنقاذ نفسه المشرفة على الهلاك ، كذلك يجب على صاحب الذنوب المبادرة إلى التوبة لينقذ حياته من أضرار المعاصي في الدنيا وعواقبها المخزية في الآخرة .

ومن أهمل المبادرة إلى التوبة وسوّف الإقدام عليها بالتأجيل والتأخير من وقت إلى آخر فهو بين خطرين عظيمين ان سلم من أحدهما فإنه لا يسلم من الآخر قطعاً ، وهما :

أ ـ أن تتراكم على قلبه ظلمات المعاصي إلى أن تصير رينّا وطبعاً ، كما قال الله سبحانه في كتابه المجيد « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » [1] ، وكما روي عن أهل البيت (ع) بأن كل معصية يفعلها الإنسان يحصل منها ظلمة في قلبه ، كما يحصل من البخار ظلمة على وجه المرآة ، فإذا تراكمت الذنوب صارت رينّا كما يتحول البخار عند تراكمه على المرآة صدأ ، وقد يعبر عن صاحب هذا القلب بالقلب المنكوس ، كما جاء ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله :

« ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته ، ان القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله » [2] .

وروي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام كذلك أنه قال :

« ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء ، فإذا أذنب ذنباً خرج من

---

(١) المطففين / ١٤ .

(٢) البحار / ج ٧٣ ، ص ٣٧٧ .

النكتة نكتة سوداء ، فإن تاب ذهب ذلك السواد ، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض ، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً ، وهو قول الله عزوجل (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) » [1] .

وقوله عليه السلام « لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً » يدل على أن صاحب هذا القلب لا يرجع عن المعاصي ولا يتوب منها أبداً ، ولو قال بلسانه « تبت إلى الله » يكون قوله هذا مجرد تحريك اللسان من دون موافقة القلب ، فلا أثر له أصلاً ، أعاذنا الله سبحانه من ذلك .

ب ـ أن يعاجله الأجل فلا ينتبه من غفلته إلا وقد حضرته ساعة الموت وفاته وقت التدارك وانسدت بوجهه أبواب التلافي ، وجاء الوقت الذي أشار اليه سبحانه بقوله « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » [2] وصار يطلب المهلة والتأخير يوماً أو ساعة ، فيقال له : ليس لك ذلك .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون ، وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتني الى اجل قريب فأصدق واكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء اجلها والله خبير بما تعملون ﴾ [3] .

---

(١) الكافي ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .
(٢) سبأ ، ٥٤ .
(٣) المنافقون ، ٩ ـ ١١ .

وقال بعض المفسرين أن المقصود بذكر الله هنا هو التوبة ، وان المحتضر يقول عند حضور ملك الموت « يا ملك الموت أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب اليه وأتزود صالحاً ، فيقول : فنيت الأيام ، فيقول : أخرني ساعة ، فيقول : فنيت الساعات »[1] ، فيغلق باب التوبة بوجهه ويتركه يتجرع غصّة اليأس وحسرة الندامة على تضييع العمر ، وربما اضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال نعوذ بالله تعالى من ذلك ، ونستجير به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ... ولهذا كان لقمان الحكيم يقول لابنه : « يا بني لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتي بغتة »[2] .

وجوب التوبة على الجميع

قال الإمام الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة :

« التوبة حبل الله ومدد عنايته ، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال ، وكل فرقة من العباد لهم توبة ، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر ، وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات وتوبة الأصفياء من التنفيس ، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله تعالى ، وتوبة العام من الذنوب ، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبته ومنتهى أمره ، وذلك يطول شرحه ها هنا ... »[3] .

---

(١) جامع السعادات ، ج ٣ ، ص ٩١ .
(٢) جامع السعادات ، ج ٣ ، ص ٥٨ .
(٣) مصباح الشريعة ، ص ٩٧ ، ط الاعلمي بيروت .

وإذا أردنا تفسيراً مقبولاً لهذا الخبر فيمكن فهمه على ان : التوبة مظهر من مظاهر التكامل الروحي والمعنوي للانسان ، فالتكامل حاجة إنسانية عامة يقصدها حتى الأنبياء ، وهذا دليل على كمال الله سبحانه وحده أما البشر فهم جميعاً ناقصون بالنسبة اليه سواء كان منهم الأنبياء أو الأولياء أو الأوصياء ، فهم جميعاً بحاجة دائمة إلى عناية الله ورحمته ، ومن الطبيعي أن تختلف عند البشر درجات النقص التي تؤدي بهم إلى الخطيئة ، وذلك حسب درجة إيمانهم ومستوى التزامهم بأحكام الله سبحانه ويقينهم برسالاته وآثاره ، ولكنهم جميعاً يستطيعون أن يسدوا هذا النقص بالتوبة كما أشار إلى ذلك الإمام الصادق عليه السلام .

دوافع التوبة ومقوماتها

التوبة وقفة تأمل وجدانية هادفة ، تبدأ بهزة ضميرية عنيفة تنطلق من التفكير بأضرار الذنوب في الدنيا وعواقبها المخزية في الآخرة ... وتنتهي بقرارات داخلية صارمة يتخذها المذنب ضد نفسه الأمّارة بالسوء ثم يترجمها بعد ذلك إلى سلوك ظاهر صالح ، وحياة عامرة بالإيمان والاستقامة ، ولا يمكن أن تولد هذه الوقفة الحاسمة في حياة المذنبين البعيدين عن الله تعالى إلا بعد أن تتوفر في نفوسهم مقومات رئيسية ثلاثة ، وهي :

١ – العلم بضرر الذنوب :

فعندما يتعرف الإنسان المذنب على مساوىء سيئاته ومضارها على

حياته في الدنيا والآخرة ، كما تحدثت عنها الآيات والروايات .. ويعلم أيضاً بنتائجها المدمرة عليه وعلى أعضاء أسرته من جهة تربوية ، وانها تسبب النيل من سمعته وسخط المؤمنين عليه ، ونبذهم إياه وعدم مراعاتهم لحرمته ، حيث يجوز لهم غيبته ، إذ لا غيبة للفاسقين ، كما تسبب سخط الله سبحانه عليه وغضبه الذي يتجسد أحياناً بنزول النقم وقطع النعم وحبس الدعاء وحلول البلاء .. هذا بالإضافة إلى ما يلاقيه من خزي وهلاك في ظلمة القبر الموحشة ، وفي مواقف يوم الحساب العصيبة نتيجة أعماله السيئة .

حينما يعلم المذنب بكل هذه الأضرار للذنوب سوف يتألم على ما اقترف من سيئات ونتيجة لهذا الألم النفساني تحدث عنه يقظة ضميرية وتحصل لديه حالة نفسية تسمى « بالندم » .

٢ – الندم على ارتكاب المعاصي :

والندم يقظة ضميرية واعية ، وهزّة وجدانية عنيفة تحدث في داخل الإنسان فتستقطب مشاعره وتفكيره ، وهي تأتي بعد معرفة أضرار الذنوب ونتيجة لهذه المعرفة تشتعل نيران الندامة في القلب ويشتد لهيبها بأحد عاملين رئيسيين أو بكليهما معاً ، وهما :

أ ـ الخوف من عقاب الله سبحانه في الدنيا والآخرة .

ب ـ حب التقرب اليه جلّ شانه .

فإذا استولت مشاعر الندم على القلب انبعثت منها حالة أخرى

جديدة تعرف « بالإرادة المصممة الصلبة » .

٣ – الارادة القوية المصممة الصلبة :

وتنوجد هذه الإرادة بعد الوضوح الفكرى والعقائدي لمخاطر الذنوب وبعد حالة الندم المستعرة في الوجدان عنـد ذلك تنتفض الإرادة لتترجم ثورة الضمير والوجدان إلى عملية تغيير وانقلاب شامل في حياة الإنسان.. فيبدأ المذنب بالتفكير في تغيير خلجاته النفسية وأفكاره الداخليـــة ، وممارساته اليومية ليضعها في خط العودة إلى الله سبحانـــه ، والالتزام بعقيدته ورسالته ، وهو في كل ذلك معتمداً على إرادته القوية المصممـة ، متوكلاً على الله ، وبهذه الإرادة الصلبة يتخذ قرارات حاسمة شديـــدة وهادفة مع نفسه ، يعتمدها كبرنامج عملي تربوي ترويضي لحياته الجديدة بعد التوبة ، وأهم هذه القرارات ثلاث « ترك الذنوب في الحـــاضر » و« العزم على تركها في المستقبل » و « الاشتغـــال بتلافي تبعـــات الذنوب الماضية » .

وقد أشار الشيخ النراقي في جامع السعادات إلى مقومات التوبة الثلاث وإلى القرارات التربوية التي يتخذها المذنب في كلام مختصر قال فيه :

« العلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبـال والتلافي للماضي ثـــلاث معان مترتبـــة في الحصول يطلق اسم « التوبة » على مجموعها »[1] .

---

(١) جامع السعادات ، ج ٣ ، ص ٥٠ – ٥١ .

فالتائب ـ إذاً ـ إنسان علم بأضرار ظلمة الذنوب على نفسه وعرف انها مبعدة له عن ساحة قدس الله تعالى ، وانها تعرضه لسخطه وانتقامه ، وتقوده إلى جهنم ، فندم على ما فرط في ماضيه وعزم على ترك المعاصي بإرادة قوية وتصميم شديد على عدم العود إلى ما كان عليه من انحراف عن خط الدين وابتعاد عن رب العالمين ، وبدأ حياة جديدة عامرة بالتقوى والعمل الصالح .

قبول توبة المذنبين

إذا رجع المذنب إلى ربه ، نادماً على ما فرط في جنبه ، قبل الله تعالى توبته وتجاوز عن خطيئته وغفر زلته « فإنه كان للأوابين غفورا »[1] ، وقد ذكر سبحانه قبوله لتوبة المذنبين في أكثر من مرة ، فقال :

﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾[2] .

وقال :

﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة من عباده ويأخذ الصدقات وان الله هو التواب الرحيم ﴾[3] .

وقال :

﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾[4] .

---

(١) الاسراء ، ٢٥ .
(٢) الشورى ، ٢٥ .
(٣) التوبة ، ١٠٤ .
(٤) غافر ، ٣ .

وقال :

﴿ الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم ﴾ [1] .

ومما روي عن طريق أهل البيت (ع) في قبول توبة المذنبين ما رواه محمد بن مسلم ، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام ، حينما قال له :

« يا محمد بن مسلم : ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له ، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله انها ليست إلا لأهل الإيمان ، قلت : فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة؟ فقال : يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته ؟ قلت : فإنه فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب ويستغفر الله ، فقال : كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة ، وان الله غفور رحيم ، يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ، فإياك أن تقنط المؤمن من رحمة الله » [2] .

وكان زين العابدين عليه السلام يقول في دعائه « .. يا من عوّد عباده قبول الانابة ، ويا من استصلح فاسدهم بالتوبة » [3] .

---

(١) البقرة ، ١٦٠ .

(٢) الكافي ، ج ٢ ، ص ٤٣٤ .

(٣) الصحيفة السجادية ، دعاء ١٢ .

ان قبول الله تعالى لتوبة المذنبين العاصين من عباده مظهر من مظاهر لطفه وكرمه ، حيث يتجلى لطفه سبحانه دائماً في تسيير كل ما من شأنه أن يقرب عباده منه ويبعدهم عن ساحة غضبه ، تحننا منه عليهم ورأفة بهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » [1] ، ولا يسد أمامهم أبواب الرجوع اليه بعد التمرد عليه ، فيكون سبباً لغيهم وطغيانهم وبعدهم عن ساحة رحمته ، حاشا له ذلك وهو الذي كتب على نفسه الرحمة « وكتب ربكم على نفسه الرحمة » [2] تلطفاً منه بعباده الذين يعلم ضعفهم « وهو اللطيف الخبير » [3] ومن لطفه ورحمته أن أعطى عهداً للمذنبين بقبول توبة من رجع منهم اليه مخلصاً في إنابته نادماً على جنايته ، فقال سبحانه لنبيه الكريم :

﴿ واذ جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم ﴾ [4] .

وقال :

﴿ واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ [5] .

فالآيات هنا تشير إلى معنى وجوب قبول التوبة على الله سبحانه

---

(١) البقرة ، ٢٨٦ .
(٢) الانعام ، ٥٤ .
(٣) الملك ، ١٤ .
(٤) الانعام ، ٥٤ .
(٥) طه ، ٨٢ .

تجاه عباده المذنبين التائبـــين ، وتوضح بأن هذا الوجوب ليس وجوباً مفروضاً عليه ، ولا العقل الإنساني يعينه له ، وإنما هو سبحانه كتب هذا الوجوب على نفسه ، وهذا هو المعنى الحقيقي لوجوب قبول التوبة على الله سبحانه تجاه عباده ، وهكذا يجب أن نفهم معنى وجوب كل ما يجب عليه سبحانه تجاه عباده .

شروط قبول التوبة :

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، اولئك اعتدنا لهم عذابا أليما ﴾ (١) .

وعلى ضوء هذه الآية فان شروط قبول التوبة ثلاث ، وهي :

الشرط الأول : أن يكون التائب قد ارتكب معصيتـه عن جهـالة ، (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهـــالة ، ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم) ، وحالة الجهالة في اقتراف المعاصي ، هي : أن يأتي الإنسان بالمعاصي بسبب ضغوط الشهوة وغلبة الضعف فيقـدم عليها من غير عناد مع الحق ولا إصرار على ما فعل من فاحشة ، كما يدل على ذلك قوله تعالى :

---

(١) النساء / ١٧ - ١٨ .

﴿ والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ [1] .

وهذه الآية تشير إلى صفة نفسية تعتبر من أبرز صفات أصحاب ذنوب الجهالة وهي : انهم حينما ينتهون من عمل الفاحشة يقعون رأساً فريسة لعذاب الضمير وتأنيب محكمة الوجدان مما يجعلهم يتوبون بسرعة إلى الله سبحانه ويطلبون منه الصفح والمغفرة على حياء مما فعلوا ويستفاد من هذه الآية ان كل مذنب يتصف بهذه الصفة النفسية إن تاب « يجد الله غفوراً رحيما » [2] .

و إلى هذا النمط من الطبيعة البشرية التي تعتريها حالات الضعف أو الجهالة فتقدم على المعصية من غير تحدي لله ولا إنكار لآياته ولا جحود برسالاته أشار الله سبحانه في قوله :

﴿ واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده ، واصلح فانه غفور رحيم ﴾ [3] .

أما الذين يقترفون المآثم والجرائم عن عناد مع الحق وإصرار على الباطل واستكبار على الله تعالى ، كما فعل يزيد بن معاوية ، وعمر بن سعد والحجاج ، والشاه المقبور ، وصدام التكريتي وأمثالهم من جناة التاريخ ومجرمي الإنسانية ، فان هؤلاء وأمثالهم لا تقبل توبتهم ، لأنهم كفروا

---

(١) آل عمران / ١٣٥ .
(٢) النساء / ١١٠ .
(٣) الأنعام / ٥٤ .

بالله بعد ايمانهم وحاربوا أولياء الله ، ونكلوا بهم أشد التنكيل ، فليس لهم بعد ذلك توبة عند الله « ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ، وأولئك هم الضالون »[1] ، بل ان هؤلاء الجناة لا يوفقون للتوبة أبدا ، وذلك بسبب تراكم ظلمات الخطايا والجرائم ـ التي اقترفوها ـ على قلوبهم فصارت متكلسة بأدران السيئات متحجرة بأوساخ الآثام مما جعلها أشد قسوة من الحجارة ، فهذه القلوب الصلدة السوداء لا يمكن أن تقبل ومضات الهدى ، وشعاع نور الإيمان ، فضلاً عن التوبة المخلصة النصوحة .

ويقول علماء النفس المتخصصون بدراسة ظاهرة الجريمة ان من أبرز الصفات النفسية لهؤلاء الجناة المجرمين الكبار هو عدم شعورهم بوخز الضمير وتأنيب محكمة الوجدان حينما يفرغون من ارتكاب أبشع الجرائم وأشدها فظاعة ، ويعلل القرآن الكريم هذه الظاهرة النفسية لهم ، بأن قلوبهم تطبعت على الجريمة ، وألفت المنكرات وتعودت على اقتراف الجرائم ، فران عليها ما كانوا يكسبون من آثام ...

الشرط الثاني : أن لا يتوب المذنب عندما يرى علائم الموت قد أحاطت به ، كما فعل فرعون الطاغية حينما أحاطت به أمواج البحر من كل صوب فرأى شبح الموت يلوح بين عينيه منذراً بقرب نهايته ، فأعلن توبته .. فهذه التوبة مرفوضة لأنها توبة المضطر ، توبة من ليس لديه

---

(١) آل عمران / ٩٠ .

متسع من العمر لارتكاب الذنوب ، فهي غير مقبولة لأنهـــا لا تنشىء صلاحاً في النفس ، ولا تأثيراً لها في الحياة ، بل ولا فائـــدة لها بعد أن انتهت فرصة الاستفادة من العمر وصاحبها يعاين ملك الموت وهو قادم لقبض روحه « وليست التوبة للذين يعملون السيئـــات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن » .

أما الذين يتوبون إلى الله تعالى « من قريب » على حد تعبير القرآن، فإن توبتهم مقبولة ، لأنهم أنابوا الى الله تعـالى مخلصين نادمين قبـل أن تتبين لهم سكرات الموت ، وقبل أن يحسوا انهم على عتبـــاته ، فهؤلاء صادقون في توبتهـم مخلصون في انابتهم ، وإلى هذا الصنف من المذنبـين أشار الإمام الصادق عليه السلام في حديث رواه عن آبائـــه عن جده رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال :

« قال رسول الله : من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته ، ثم قال : ان السنة لكثيرة ، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبتـه ، ثم قال : ان الشهر لكثير ، من تاب قبل موته بجمعـة ، قبـل الله توبته ، ثم قال : ان الجمعة لكثير ، من تاب قبل موته بيوم ، قبـل الله توبتـه ، ثم قال : ان يوماً لكثير ، من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته »[1] .

وقبول التوبة قبل المعاينة كناية عن التوبة قبل معرفة علائم الموت ،

---

(١) اصول الكافي / ج٢ ، ص ٤٤٠ .

ويظهر من الآية [1] والرواية ان قبول التوبة قبل المعاينة مشروط بعدم علم التائب بعلائم الموت ، فإن تاب وفقاً لهذه الشروط فتوبته مقبولة حتى لو وقعت قبل الموت بلحظات ، على العكس من توبة من يعلم انه سيموت، فتوبته مرفوضة ، وإن كانت قبل الموت بساعات ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ان معنى التوبة هو العزم على عدم العود إلى الذنب ـ كما عرفنا سابقاً ـ وهذا العزم موجود في توبة من يتوب قبل الموت بلحظات ، مع عدم علمه بأنه سيموت ، بينما هو غير متحقق في توبة من يعلم بأنه سيموت بعد ساعات ، لأن العزم على عدم العود يتطلب منه أن يكون موجوداً في الدنيا بعد التوبة ، بينما هو يعلم بأنه على أبواب الرحيل إلى الآخرة . فهذا وإن عزم على عدم العود إلى المعصية بعد التوبة فهو على علم بأنه لا فرصة لديه ليعبر عن هذا العزم تعبيراً عملياً يكشف عن إخلاصه في توبته .

ولكن أئمة أهل البيت (ع) فرقوا في أحاديثهم بين من يتوب في حال الاحتضار وعند معرفته علائم الموت وهو عالم بأحكام الإسلام، ومع ذلك يرتكب السيئات عن عناد وإصرار ... وبين من يرتكب المعصية وكان جاهلاً بالأحكام ، فاعتبروا توبة الأخير حال معرفة علائم الموت مقبولة ، بعكس توبة العالم بالأحكام ، كما جاء في رواية زرارة ، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام ، قال :

« إذا بلغت النفس هذه ـ وأهوى بيده إلى حلقه ـ لم يكن للعالم

---

(١) نقصد الآية التي ذكرت في شروط قبول التوبة .

توبة ، وكانت للجاهل توبة »[1] .

فلا ينبغي للمسلم الملتزم .. إذن ـ أن يتساهل ويتسامح في الإقدام على التوبة إلى درجة يؤدي إلى تأخيرها فتفوت عليه الفرصة بحضور الموت ، فإن الله تعالى لا يقبل التوبة إلا من قلوب قد هزّها الندم من الأعماق ورجّها رجّاً عنيفاً حتى استفاقت فتابت وأنابت اليه سبحانه بعد أن استجدت عندها رغبة حقيقية في التطهر من دنس المعاصي ، وهي في فسحة من العمر .

الشرط الثالث : أن لا يتمادى المذنب في كفره وعصيانه ، حتى يموت وهو كافر « ولا الذين يموتون وهم كفار ، أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليما » ، وبما انه لا معنى لتوبة المذنبين بعد الموت ، فيفهم من الآية إذن ان المقصود من عدم قبول توبة الذين يموتون وهم كفار هو عدم رجوع الله تعالى على الكافر المعاند باللطف والمغفرة يوم القيامة ، وهذا هو أحد معاني التوبة المنسوبة لله تعالى تجاه عباده فإن توبته جلّ ذكره تجاههم عامة تشملهم في الدنيا والآخرة ، لأنه المطلق الذي لا تحده حدود ، وهذا يعني ان الله سبحانه سوف يتلطف بالعفو والمغفرة على بعض عباده المذنبين بعد الممات ويمكن أن نعتبر قبوله سبحانه لشفاعة الشافعين لبعض المذنبين مظهراً من مظاهر هذا اللطف ولوناً من ألوان التوبة الربانية على بعض المذنبين من عباده بعد الحياة الدنيا ، ولكن هذه التوبة الإلهية لا تشمل الذين يموتون

---

(١) اصول الكافي / ج ٢ ، ص ٤٤٠ .

وهم كفار حسب هذا الشرط الأخير للتوبة.

هذه هي شروط قبول التوبة كما ذكرتها الآية ، أما الآتيان بما يستتبعه الذنب من قضاء الفرائض الفائتة كالصلاة والصيام وأداء الحقوق المفروضة من خمس وزكاة ، وكذلك أداء حقوق النـاس ، كردّ الأموال المسروقـة أو المغصوبة والتمكين من القصاص ونحو ذلك فإنها كلها ليست من شروط قبول التوبة ، بل هذه واجبات برأسها والتوبة صحيحة ومقبولة بدونها.

أما العمل الصالح بعد التوبة الذي ختم القرآن ـ في الدعوة اليـه ـ أكثر آيات التوبة فهو ليس من شروط قبولهـا كما توهم بعض الأفاضل من العلماء ، وإنما هو من شروط كمالها ، ومن خصائص الاستقامة عليها ، كما سوف نتعرف على ذلك حينـما نتحدث عن التوبـة من جهـــة تربوية في الفصل الثالث .

التائبون امام القضاء الاسلامي

بقي علينا في هذا الفصل أن نتعرف على موقف القضاء الإسلامي من المجرمين والمذنبين التائبين ، وهل ان توبتهم تشفع لهم في سقوط العقوبة القانونية عنهم ؟ أم لا بدّ للقضاء الإسلامي من أن يأخذ مجراه لمعاقبتهم وإن أعلنوا توبتهم مخلصين أمامه ؟

والكلام عن موقف المحكمة الإسلامية من المجرمين والمذنبين التائبين متصور في حالتين فقط وهما:

١ ـ فيما إذا تاب المذنب أو المجرم فيما بينه وبين الله تعالى قبل أن تثبت إدانته ، أو بتعبير آخر: تاب قبل أن تصل اليه يد القضاءالإسلامي ثم وصلت اليه بعد ذلك .

٢ ـ فيما إذا تاب المذنب أمام قاضي المحكمة الإسلامية بعد أن ألقي القبض عليه بالجرم المشهود ، أو بعد أن ثبتت إدانته حسب أدلة القضاء الإسلامي في إثبات الجريمة .

وسنتكلم باختصار [1] عن موقف العدالة الإسلاميـــة من المجرمين التائبين في كلتا الحالتين :

الحالة الاولى :

وهي التي يتوب فيها المجرم قبل أن تثبت إدانته ، فإن المتفق عليه بين فقهاء الإمامية قبول توبته واعتبارها مسقطة لعقوبة الدنيا وعذاب الآخرة عنه .

فلو تاب مرتكب « الزنا » [2] أو « اللواط » [3] أو «شرب الخمر» [4] أو « السرقة » [5] أو « الإفساد في الأرض » [6] قبل أن تثبت إدانتـــه قضائياً سقط عنه العقابان ، عقاب الدنيا وعقاب الآخرة .

فاذا عرف صلاحه بعد التوبة ثم قامت ـ بعد ذلك ـ دعوة عنـــد المحاكم القضائية محاولة إدانته على جرمه القديم الذي تاب عنـــه لا يصغي القاضي اليها .. فالسارق لا تقطع يده في هذه الحالة ، نعم يجب عليـــه

---

(١) من يرغب بالتوسع في هذا الموضوع يراجع كتابنا (التائبون أمام القضاء الاسلامي) وهو الحلقة الثانية من هذه الدراسة .

(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٦٢ ، مسألة ١٦.

(٣) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٧٠ ، مسألة ٨ .

(٤) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٨١ ، مسألة ٣ .

(٥) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٨٨ ، مسألة ٤ .

(٦) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٣ ، مسألة ٧ .

إرجاع ما سرقه لأهله وأصحابه ، لأن التوبة لا تسقط عنه حقوق الناس، والذي استفدناه من كلمات الفقهاء بالاستقراء ان هذا الحكم عام يشمل كل الجرائم والذنوب ويسقط العقوبة عن المذنبين جميعاً إذا تابوا قبل إدانتهم ويستثنى من ذلك القاتل والمرتد فقط ، فأما القاتل فتوبته مقبولة عند الله سبحانه ، ولكن سقوط العقاب القضائي عنه يتوقف على عفو ولي المقتول ، وأما المرتد فلا تقبل توبته إطلاقاً على تفصيل خاص به سوف نتكلم عنه في محله من هذا البحث إن شاء الله .

الحالة الثانية :

وهي التي يتوب فيها المجرم عندما يقف مداناً بين يدي القضاء الإسلامي ، ويصل المذنب والمجرم إلى يد القضاء عن طريق أحد أصول إثبات الجريمة ، وهي في المحاكم الإسلامية ثلاث :

١ ـ علم القاضي « فيجوز للقاضي أن يحكم بعلمه من دون بيّنة أو إقرار أو حلف في حقوق الناس ، وكذا في حقوق الله تعالى »[١] ، وهذا الأصل وإن كان فيه خلاف بين الفقهاء إلا ان المشهور عند فقهاء الإمامية ما ذكرناه ، بل يظهر من كلماتهم انهم مجمعون عليه .

٢ ـ الإقرار[٢] ، فاذا أقر المذنب على نفسه بالجريمة كان للإمام الحق

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٠٨ .

(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤١٥ .

في إقامة العقوبة عليه ، بل هو بالخيار بين أن يعفو عنه ويقبل توبته ، وبين أن يقيم عليه العقوبة ، على اختلاف بين الفقهاء في هذا الأمر وتفصيل بين جرم وآخر .

الا ان اقرار المذنب أمام القضاء الإسلامي تبرعاً من تلقاء نفسه بقصد التطهر من الذنوب والجرائم ، أمر لا تشجع عليه الشريعة الإسلامية ، بل ورد عن أهل البيت عليهم السلام ذم مثل هذا التصرف فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال :

« أتى النبي صلى الله عليه وآله رجل فقال اني زنيت فطهرني فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لو استتر ثم تاب كان خيراً له »[1] .

وروي ان رجلاً أقر بالزنا أربع مرات لقنبر مساعد الإمام علي عليه السلام في اموره الخاصة ، فقال الإمام لقنبر احتفظ به ، ثم غضب والتفت إلى الحاضرين قائلاً :

« ما أقبح بالرجل منكم أن يأتي بعض هذه الفواحش فيفضح نفسه على رؤوس الملأ ، أفلا تاب في بيته ، فوالله لتوبته فيما بينه وبين الله أفضل من إقامتي عليه الحد »[2] .

وفي خبر آخر ورائع جداً بهذا الصدد عن أمير المؤمنين عليه السلام كذلك انه أتاه رجل فقال :

---

(١) الوسائل / ج ١٨ ، ص ٣٢٨ .
(٢) الوسائل / ج ١٨ ، ص ٣٢٧ .

« يا أمير المؤمنين اني زنيت فطهرني ، فأعرض عنه بوجهه ، ثم قال له : اجلس ، فقال : أيعجز أحدكم اذا قارف هذه السيئة أن يستر على نفسه كما ستر الله عليه ؟ فقام الرجل فقال : يا أمير المؤمنين اني زنيت فطهرني ، فقال : وما دعاك الى ما قلت ؟ قال : طلب الطهارة ، قال عليه السلام : وأي طهارة أفضل من التوبة ؟ ثم أقبل على أصحابه يحدثهم، فقام الرجل فقال : يا أمير المؤمنين اني زنيت فطهرني ، فقال له : أتقرأ شيئاً من القرآن ؟ قال : نعم ، قال : اقرأ ، فقرأ ، فأصاب ، فقال له : أتعرف ما يلزمك من حقوق الله في صلاتك وزكاتك ؟ قال : نعم ، فسأله فأصاب ، فقال له : هل بك مرض يعروك أو تجد وجعاً في رأسك أو بدنك ؟ قال : لا ، قال : اذهب حتى نسأل عنك في السر كما سألناك في العلانية ، فان لم تعد الينا لم نطلبك »[1] .

انها عظمة الإسلام وسماحته وحكمته تتجسد في كلمات علي عليه السلام ومواقفه على شكل قضاء عادل وعفو وصفح وستر ومغفرة ، ولم تقف هذه العظمة الربانية في الشريعة الإسلامية عند هذا الحد في حالات الإقرار وانما تتعداها الى أكثر من ذلك حيث تعطي أحكام القضاء الاسلامي للامام الحق في درأ الحدود بالشبهات[2] وأن يعفو عن بعض المذنبين[3]

---

(١) الوسائل / ج ١٨ ، ص ٣٢٨ .

(٢) كما نلمح هذا الحق من خلال هذا النص نفسه .

(٣) وليس كلهم للنص .

المقرين أمامه بخطـــاياهم ، المقترفين بجرائمهم المعلنين توبتهم عن صدق واخلاص فيصبح الامام حينئـــذ مخيراً بين اجراء العقوبـــة بحقهم أو الصفح عنهم .

٣ ــ قيام البينة الشرعية التي تثبت ارتكاب المذنب للجريمة قبل أن يتوب ويظهر صلاحه ، ففي هذه الحالة لا بدّ أن ينال المذنب عقابه جزاء لما اقترفت يداه الآثمتان ، وتوبته أمام القضاء العـــادل لا تشفع له ، ولا تكون مسقطة للعقوبة عنه، وان كانت سبيلاً الى مغفرة الله تعالى وعفوه في الدار الآخرة .

توبة المرتـــد

المرتد : هو كل من خرج عن الاسلام واختـــار الكفر ، وهو على قسمين : « فطري » و « ملي » .

١ ــ المرتد الفطري : وهو من كان احد أبويه مسلماً حال انعقـــاد نطفته في رحم الأم ، ثم أظهر الاسلام بعد بلوغـه ، ثم خرج عنـه ، فان تاب تقبل توبته واقعاً ولا تقبل ظـــاهراً ، فيجب اقامة الحد عليـــه وهو « القتل »[1] .

٢ المرتد الملي : وهو من كان أبواه كافرين حال انعقاد نطفته ثم أظهر الكفر بعد البلوغ ، فصار كافراً أصليـاً ، ثم أسلم ، ثم عاد الى الكفر ،

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٤ ، مسألة ١ .

وحكمه [1] أن يستتاب ثلاثة أيام ، فان تاب تقبل توبته وتسقط العقوبة عنه ، فان امتنع عن التوبة ورفضها قتل في اليوم الرابع .

أما إذا تكرر الارتداد منه مع تكرر التوبة يقتل في المرة الثالثة ، وقيل يقتل في الرابعة ، كما اختار ذلك الامام الخميني حفظه الله [2] .

والمرأة إذا ارتدت لا تقتل سواء كان ارتدادها عن فطرة أوعن ملة، فإذا بقيت على الارتداد تخلد في السجن ـ مع الأشغال الشاقة ـ فيضيق عليها في المأكل والمشرب والملبس وتضرب أوقات الصلاة ، فإن تابت قبلت توبتها وخلي عن سبيلها [3] ، قال صاحب الجواهر إجماعاً ونصاً .

توبة المفسد في الأرض

ويسمى المفسد في الأرض في مصطلح الفقهاء « بالمحارب » وعرفه الامام الخميني بقوله : « وهو كل من جرد سلاحه أو جهزه لاخافة الناس وإرادة الافساد في الأرض في بر كان أو في بحر ، في مصر أو في غيره ، ليلاً أو نهاراً ذكراً كان أو انثى » [4] وقد نصّ القرآن الكريم على حكم المفسدين في الأرض في قوله تعالى :

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٤ ، مسألة ١ .
(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٥ ، مسألة ٥ .
(٣) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٤ ، مسألة ١ .
(٤) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٢ ، مسألة ١ .

﴿ انما جزاء الذين يحـــاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا في الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم واعلموا ان الله غفور رحيم ﴾ (١) .

ويظهر من هذه الآية انها تتحدث عن حركة ـ فردية أو جماعيـة ـ في داخل المجتمع الاسلامي الذي يحكمه الاسلام ، ومن أبرز أهداف هـذه الحركة هو محاولة تمزيق المجتمع الموحد عن طريق إخافـة أبنـائه وإثارة الرعب والذعر بين صفوفه ، والاعتداء عليه والاخلال بأمنـه ، ثم ترشد الآية إلى الموقف السياسي والقضائي الواجب على المسلمين أن يقفوه من هذه الحركة المفسدة في بلادهم ، ويستفاد من كلمـة « أو ينفوا في الأرض » ان عناصر هذه الحركة منبثقة من داخل المجتمع الاسلامي وهم اما من المسلمين ولكنهم انحرفوا عن الخط الاسلامي الصحيح فخرجوا على طاعة إمامهم ـ قائد المجتمع الاسلامي ـ ووقفوا في خط المعارضة التي تفسد في الظلام، كالخوارج الذين خرجوا على حـكم الامام أمير المؤمنـين عليه السلام ، واما من المسلمين المنافقين الذين يتظاهرون بالاسلام والدعوة اليـــه وأنهم يعملون لمصلحة الجماهير والأمة وانهم إنما يعارضون الدولة الاسلاميـــة لأن قادتها حسب تصوراتهم وادعائهم لا تطبق حكم الاسلام ولا تسهر على مصالـــح الشعب .. وهؤلاء إذا خلوا إلى شياطينهـم اتخـذوا من الافساد في الأرض والنيل من السلطة الاسلامية وسيلة للانتقام من الاسلام والمسلمين في غلس

---

(١) المائدة/ ٣٣ ـ ٣٤ .

الليل كما فعلت منظمة « مجاهدي الشعب » التي عاثت في الأرض فساداً ودماراً وخراباً ، وقتلت الأبرياء والأطفال والنساء والشيوخ ، وفجرت بعض المنشآت الاقتصادية والمراكز الادارية للدولة حقداً على الاسلام وانتقاماً من المسلمين في إيران الاسلام .

فالمفسدون في الأرض إذاً ليسوا من الكفار ، وإنما هم من المسلمين وإلى هذا المعنى أشار السيد الطباطبائي حينما فسّر آية المفسدين ، فقال :

« ان هؤلاء ليس من الكفار ، لأن النبي ﷺ لم يعامل المحاربين من الكفار بعد الظهور عليهم والظفر بهم هذه المعاملة من القتل والصلب والمثلة والنفي »[1] .

وفي الواقع انه من غير المتصور أن يكون المجتمع الاسلامي قادراً على القيام بحقوقه القانونية والسياسية التي ذكرتها الآية لمواجهة العصابات المحاربة في داخله والقضاء عليها ما لم يكن النظام الاسلامي هو النظام الحاكم في حياته ، والا كيف يستطيع هذا المجتمع أن يعاقب هؤلاء المعتدين على حقوقه ويقتلهم أو يصلبهم أو ينفيهم من الأرض إن لم يكن له سلطة قضائية مبسوطة اليد تأمر وتنهي باسم الاسلام ، وبهذا الفهم الواعي وحده يمكن أن نعرف اسلوب مواجهة المسلمين لأعدائهم المفسدين في بلادهم ، كما تؤكد صحة هذا الفهم الأحكام الشرعية التي بينها الفقهاء

---

(١) الميزان / ج ٦ ، ص ٣٢٦ ، ط بيروت .

حول المفسدين وأوضحوا من خلالها طريقة القضاء عليهم ، ومن جملة هذه الأحكام ما ذكره الامام الخميني حفظه الله بشأنهم فقال :

« إذا نفي المحارب من بلد إلى بلد آخر يكتب الوالي إلى كل بلد يأوي اليه بالمنع عن مؤاكلته ومعاشرته ومبايعتـــه ومناكحته ومشاورته ، والأحوط ان لا يكون أقل من سنة وإن تاب ، ولو لم يتب استمر النفي الى أن يتوب ، ولو أراد بلاد الشرك يمنع منهـا ، قالوا : وان مكنوه من دخولها قوتلوا حتى يخرجوه »[1] .

ومن الواضح من خلال كلام الامام ان هذه الاجراءات القضائية التي يجب أن تتخذ ضد المفسدين لا يمكن أن يقوم بها المسلمون ضد المحاربين لهم في داخل مجتمعهم وضد المشركين الذين يحاولون حمـــايتهم سياسياً وأمنياً ودعمهم اقتصادياً الا في ظل دولة اسلامية حاكمة عزيزة قوية .

وللشهيد السيد قطب تعليق لطيف في ظلال آية المفسدين يؤكد فيه على ان المحاربة والافساد غير متصورين الا في ظل مجتمع اسلامي تحكمه شريعة الاسلام ، فيقول :

« وحدود هذه الجريمة التي ورد فيهـــا هذا النص هو الخروج على الامام المسلم الذي يحكم بشريعة الله ، والتجمع في شكل عصابة خارجة على سلطـان هـذا الامام تروع أهل دار الاسلام ، وتعتـــدي على أزواجهم

---

(١) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص٤٩٣ ، مسألة ١٠ .

وأموالهم وحرماتهم وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله ... لا يحاربون الحاكم وحده ولا يحاربون الناس وحدهم ، انما يحـــاربون الله ورسوله حينما يحاربون شريعته ويعتدون على الأمة القائمـــة على هذه الشريعة ، فهم يسعون في الأرض فساداً وليس هناك أشنع من محـــاولة تعطيل شريعة الله وترويع الدار التي تقام فيها هذه الشريعة »[1] .

وحكم المحارب أو المفسد في الأرض « لو تاب قبل القاء القبض عليـه يسقط الحد عنه ، دون حقوق الناس من القتل والجرح والمـال ولو تاب بعد الظفر عليه لم يسقط عنه الحد »[2] ، كما نصت على ذلك الآية القرآنية.

حقوق الناس :

والكلام الذي مر علينا حول موقف القضاء الاسلامي من التائبين كان كله فيما يتعلق بالحق العام الذي يسميه الفقهـــاء « بحق الله » أما الحقوق الخاصة بالناس فيجب ارجاعها لهم سواء كانت أموالاً أو جروحاً أو قتلاً أو غير ذلك وسواء كان المذنب المعلن لتوبتـه مسلماً أو مرتداً أو محـارباً فلا تسقط التوبة هذه الحقوق عنه ، فالواجب عليه شرعاً ايصالها وأدائها لأصحابها سواء قبلت توبته أو لم تقبل في المحاكم الاسلامية .

ويستثنى من هذا الحكم ، الكافر والمشرك الأصلي ، فإن تاب أحدهما

---

(١) في ظلال القرآن / ج ٢ ، ص ٧٠٩ – ٧١٠ .

(٢) تحرير الوسيلة / ج ٢ ، ص ٤٩٣ ، مسألة ٧ .

ودخل في الاسلام لأول مرة ، فتوبته مطهرة له من جميع الحقوق العامة والخاصة ، لان الاسلام يجبّ ما قبله على حد تعبير الفقهاء ، أي ان التوبة من الكفر والشرك الاصلي يمحو بها الاسلام كل سيئة سابقة وكل تبعة قديمة سواء كانت متعلقة بحقوق الله سبحانه أو بحقوق الناس، وعلى ضوء هذا الحكم تفسّر الآيات المطلقة الدالة على غفران السيئات جميعاً بالنسبة للتائبين ، فإن المقصود بهذه الآيات هم التائبون من الكافرين والمشركين الاصليين خاصة لا غير .

الفصـــل الثالث

التوبـــة منهـــج تربوي رباني

التوبة دعوة مفتوحة للمذنبين

التوبة باب الله تعالى الآمن ، الذي فتحه إلى ساحة عفوه ، كما جاء في دعاء الامام زين العابدين عليه السلام الذي قال فيه :

« إلهي أنت الذي فتحت لعبادك باباً إلى عفوك سميته التوبة ،. »[1] .

نعم انها باب آمن لا يقف على عتباته قديس ولا راهب ولا رجل دين، يدخله المذنب بكل بساطة ـ لا ببطاقات الغفران ـ بل وإنما بكلمات معدودة ، بمجرد أن يتلفظها بصدق وعزم واخلاص ...

باب تركه جلّ ذكره ـ مفتوحاً بالليل والنهار ـ ملجـأ وماوى لعباده الهاربـين من واقعهم المنحرف ليدخلوه متى أرادوا بمجرد أن تستجد عندهم رغبة مخلصة في التطهر من دنس الخطـايا والتخلص من واقعهم المنحرف .

انها سماحة الرب العظيم بعباده الضائعـين ، فهو ـ سبحانـه ـ يقبل

---

(١) الصحيفة السجادية / مناجات التائبين .

لجوئهم اليه وايوائهم تحت كنف مودته ولطفه مهما كبرت ، أو كثرت ذنوبهم وخطاياهم ... فتوبتهم جميعاً مقبولة عنده ، متى رجعوا اليه مخلصين له الدين ، بشرط أن لا يقترفوا السيئات عن اصرار على الباطل وعناد مع الحق ، ولا يقترفوا الذنوب استكباراً عليه جلّ ذكره ... وأن لا يطرقوا باب التوبة عندما تغلق الحياة أبوابها في وجوههم فييأسوا من اقتراف ما يشتهون من منكرات .

والتوبة دعوة ربانية مفتوحة وموجهة لكل المذنبين في الأرض ... فالمذنبون جميعاً مدعوون لقبول هذه الضيافة الإلهية من أجل أن يضعوا حداً لفسادهم وغيهم وتساقطهم وراء الملذات الدنيوية الرخيصة كما أشار إلى هذه الدعوة الربانية الإمام الباقر عليه السلام ، فيما روي عنه قال :

« ان آدم عليه السلام قال : يا ربّ سلّطت عليّ الشيطان وأجريته منّي مجرى الدّم ، فاجعل لي شيئاً ، فقال : يا آدم جعلت لك أن من همّ من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت عليه سيئة، ومن همّ منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن هو عملها كتبت له عشراً ، قال يا رب زدني ، قال : جعلت لك أن من عمل منهم سيئة ثم استغفر له غفرت له ، قال : يا ربّ زدني ، قال : جعلت لهم التوبة ـ أوقال: بسطت لهم التوبة ـ حتى تبلغ النفس هذه ، قال : يا ربّ حسبي »[1] .

وقد يتصور البعض ان فتح باب التوبة بهذه الرحابة ربما يكون

---

(١) اصول الكافي / ج٢ ، ص ٤٤٠ .

سبباً للاغراء بالمعصية ، حيث يمكن للانسان أن يقصد الذنب ، أو الجريمة وينوي التوبة منه بعد ارتكابه فيكون فتح باب التوبة للمذنبين بهذا المستوى من التسامح محفزاً لارتكاب المآثم ومشجعاً على التوغل في دنس الجريمة ما دام المذنب والمجرم كلما تاب « يجد الله غفوراً رحيما »[1] .

وهذا التصور مصدره الجهل بحقيقة التوبة في الاسلام ، فمعنى التوبة هو : الاقلاع عن المعصية بعد ارتكابها والعزم على عدم العود اليها ، وليس في توبة من يقصد المعصية بنية التوبة بعد الانتهاء منها اقلاع عنها ، لأن مثل هذا الانسان كان عازماً على التوبة قبل ارتكاب المعصية وفي أثنائها وبعد الانتهاء منها ، تماماً كما فعل عمر بن سعد ـ قاتل الامام الحسين عليه السلام ـ فإن هذا الخبيث كان يمنّي نفسه بالتوبة ويفكر بها قبل ارتكاب الجريمة.

وفي الحقيقة ان التفكير بالتوبة قبل تحقق المعصية لا معنى له ، بل هو لون من ألوان الاستهزاء بالقيم الاسلامية ، واسلوب من أساليب الخداع والمكر « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله »[2] ، كما حاق بعمر بن سعد ، فان عمر بن سعد وأمثاله لا تقبل توبتهم أبداً ، وإلى هذا الصنف من المذنبين أشار الامام الباقر عليه السلام بقوله :

« المقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء »[3] .

---

(١) النساء / ١١٠ .

(٢) فاطر / ٤٣ .

(٣) اصول الكافي / ج٢ ، ص ٤٣٥ .

أما توبة كثير الذنب الذي لا زال غير قادر على التحكم في نزعاته والسيطرة على شهواته بسبب ضعف إرادته ، فانها مقبولة عند الله سبحانه ما دام صاحبها لا ينوي العودة إلى الذنب كلما تاب منه ، بل جاء في بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام ، ان مثل هذا الانسان المبتلى بكثرة الذنوب التي يقابلها دائماً بالتوبة له منزلة خاصة عند الله سبحانه حيث قال : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »[1] ، وروي عن الامام الصادق عليه السلام قوله : « ان الله يحب من عباده المفتتن التواب »[2] والمفتتن التواب هو كل من كان كثير الذنب وكثير التوبة في نفس الوقت ، كما فسّرته بعض الروايات والواقع ان الاسلام حينما ترك باب التوبة مفتوحاً على مصراعيه وبشكل دائم لمثل هؤلاء ضعفاء الارادة المجاهدين لأنفسهم ، كان يستهدف من وراء ذلك ربطهم بعلاقة دائمة متينة بخالقهم العزيز الرحيم ، فكلما ارتكبوا ذنباً رجعوا اليه نادمين ، وبهذه المراجعة المتواصلة بين العبد وربه كلما صدر منه الذنب فائدة تربوية عظيمة ، حيث تتعمق بسببها العلاقة الروحية والصلة المعنوية بين العبد الكثير الذنب ، وخالقه الكثير المغفرة . ويتركز بواسطة هذه الصلة المستمرة الشعور العميق لدى المذنب التائب بالرقابة الغيبية في داخل ضميره ووجدانه فيتقوى الرادع الداخلي عنده مما يجعله يستحي من الله سبحانه في السر والعلانية ويحس

---

(١) البقرة / ٢٢٢ .

(٢) جامع السعادات / ج ٣ ، ص ٦٥ .

برقابته عليه دائماً وفي كل وقت كلما أراد أن يقدم على الذنب فيمنعه ذلك من ارتكاب المعاصي ، كما أوضح هذا المفهوم التربوي للتوبة الرسول الأكرم ﷺ حينما سأله رجل كان مبتلى بكثرة الذنوب ، قائلاً :

« يارسول الله ﷺ : اني أذنبت ، فقال له : استغفر الله ، فقال اني أتوب ثم أعود ، فقال : كلما أذنبت أستغفر الله ، فقال : إذن تكثر ذنوبي ،فقال : عفو الله أكثر ، فلا تزال تتوب حتى يكون الشيطان هو المدحور »[1] .

وانطلاقاً من هذا الفهم المربي للتوبة يتضح لنا بأن عدم الثقة بالاستقامة بعد التوبة لا ينبغي أن يكون مانعاً من الاقدام عليها ، فمن أين للانسان التائب العلم بأنه سوف يرتكب المعصية بعد توبته هذه ؟ فلعله يموت طاهراً تائباً مخلصاً في إنابته إلى الله قبل أن يعود إلى الذنب ، ولعل الله سبحانه ـ حينما يعلم صدق نيته ـ يهيء له الأجواء الصالحة التي تبعده عن المعصية وتقربه إلى الطاعة ، فيساعده سبحانه على إصلاح نفسه . فلا ينبغي للمذنب الراغب بالتوبة أن يستجيب لمثل هذه الأفكار الشيطانية ، وإن تلبست بلباس الدين والمتدينين .

منزلة التائبين عند الله تعالى

لم يكتف الله تعالى بترك باب التوبة مفتوحاً للمذنبين من عباده وإنما

---

(١) إرشاد القلوب / ج ١ ، ص ٤٦ .

أعطى ـ مع ذلك ـ المذنبين العائدين اليه امتيازات خاصة بهم ، ومنحهم هبات عظيمة من لطفه وكرمه ، إكراماً لعودتهم اليه وتشجيعاً لهم على ترك المعصية وإعلان التوبة والتمسك بالأعمال الصالحة ... فقد ورد في الأخبار عن المعصومين (ع) [1] : ان الله عزّوجل أعطى التائبين ثلاث خصال ، لو أعطى خصلة واحدة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجو بها ، وهذه الخصال ذكرت في ثلاث آيات بينات :

أولها : قوله عزّوجل :

﴿ ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ [2] .

فمن أحبه الله تعالى لم يعذبه .

ثانيها : قوله عزّوجل :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب النار ، ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم ، انك انت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن اتق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ [3] .

ثالثها : قوله عزّوجل :

﴿ والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا

---

(١) اصول الكافي / ج٢ ، ص ٤٣٢ .
(٢) البقرة / ٢٢٢ .
(٣) المؤمن / ٧ ـ ٩ .

بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ (١) .

ومن الضروري أن نعرف الحكمة التي من أجلها كرّم الله تعالى التائبين وبوأهم هذ الدرجات العظيمة ... أوليس هؤلاء هم الذين كانوا بالأمس قبل توبتهم أبعد الناس عنه ، وأكثرهم عصياناً له وكفراناً بنعمه؟. فلماذا هذا التقدير والتكريم الزائد لهم بمجرد أن أعلنوا توبتهم أمامه ؟ !

والجواب واضح ... فإن المذنب إنسان آلف أجواء المعصية بسبب إدمانه عليها واعتياده على الاستسلام لمغريات الشيطان والشهوات . فهو حينما يريد أن يغير واقعه المنحرف وينتقل بنفسه من أجواء الرذيلة والعودة إلى حياة الطهر والاستقامة يواجه أصعب مرحلة خطيرة في حياته . انها مرحلة الصراع مع الذات ، مرحلة المعانات الضميريةوالمعركة الداخلية التي يحارب بها الإنسان أشرس عدو له ، عدو غير منظور الوجود ولا السلاح ، وليس في ساحة مكشوفة انه العدو الداخلي المتمثل « بالشهوات المحرمة الضاغطة » و « بالنفس الأمارة بالسوء » و « بالشيطان وجنوده التي توسوس في الصدور » ، ان هذا الاخطبوط الثلاثي المحتال الذي كثيراً ما يكمن في النفس ويختفي عندما لا يرى الأجواء مناسبة لظهوره ، ولكنه سرعان ما ينتفض قوياً ماردا يخرب ويدمر ويوسوس

---

(٢) الفرقان / ٦٨ .

ويعبث ما شاء له وكما يحب ويشتهي بمجرد أن يجد الأجواء مناسبة لذلك. ان هذا العدو الخطير المدمر لم يكن الانتصار عليه وسحقه أمراً سهلاً ، وخاصة عند اولئك المأسورين له ، الذين تعودوا حالة الخنوع والاستسلام لأمانيه والاستجابة لمطالبه ، فالانتفاضة من قبلهم بوجهه والثورة عليه تعني بالنسبة لهم نقلة جديدة من الوعي الروحي والإرادة ، لأنهم أحدثوا انقلاباً حاسماً وتغييراً شاملاً في داخلهم ، تغيير يكشف عن انتصارهم على كل عوامل الضعف الداخلي التي يسببها هذا الاخطبوط الثلاثي المدمر ، وبذلك يصبح التائبون ـ المخلصون في توبتهم ـ أقوى عباد الله في طاعته وأكثرهم شجاعة في مجاهدة كل عوامل الانحراف التي تبعدهم عن رضاه ، فلماذا لا يستحقون إذن تكريمه وتفضيله لهم ـ جلّ ذكره ـ وهم عباده المخلصون المسافرون اليه حباً له وشوقاً إلى لقائه والتقرب إلى حظيرة قدسه . فهم لا شك أحبائه الحقيقيون على حد تعبير رسول الله ﷺ في قوله :

« ليس شيء أحب إلى الله تعالى من مؤمن تائب ومؤمنة تائبة »[1] .

وقد ترجم لنا الإمام الباقر عليه السلام في حديث له هذا الحب الإلهي وصوره على شكل مشاعر فرح جياشة يلقى الله بها التائبين من عباده عند عودتهم اليه فيقول :

« ان الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٣٦٠ .

من ليلة ظلماء فوجدها ، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها »[1] .

فاللقاء بين التائب وربه ليس لقاءاً عادياً ، وإنما هو لقاء الصديقين المتعارفين منذ زمن قديم وتفارقا ، ثم تلاقيا ، وكان أحدهم أشد شوقاً وفرحاً بلقاء صاحبه وهو الله سبحانه ـ فالانتظار منه جل اسمه كان قديماً ، ولكن العبد العاق المتمرد على طاعة سيده كان مشغولاً بارتكاب المحرمات واتباع الشهوات كما أشار الأئمة (ع) في أدعيتهم إلى ذلك بقولهم:

« تدعوني فأولي عنك وتتحبب إليَّ فأتبغّض اليك »[2] .

الابعاد التربوية للتوبة

التوبة مفهوم تربوي ديني ينطلق من ايمان الاسلام بطبيعة الانسان المركب من دم ولحم وعقل وروح وعواطف تتجاذبه نوازع الخير والشر، فتارة يرتفع إلى مصاف الملائكة بأفكاره وسلوكه ، وأخرى يسقط الى حضيض الحيوانية بشهواته ونزواته ، انه دائم بين الانحراف والاستقامة، يقوم ويقعد ... فهو إذاً بحاجة الى نافذة خير وأمل في مسيرته الحياتية ، نافذة مضيئة يستطيع أن يبصر نورها حتى ولو ذهب بعيداً عن طاعة الله في انحرافه وطغيانه .. أجل انه بحاجة الى هذه النافذة ما دام يعيش في

---

(١) اصول الكافي / ج٢ ، ص ٤٣٥ .
(٢) مفاتيح الجنان / من دعاء الافتتاح .

حياة محفوفة بالأشواك مليئة بالمغريات زاخرة بالشهوات الضاغطة الملحة ، فكانت التوبة هي النافذة التي تشع في نفوس العصاة الجناة الأمل في القدرة على اصلاح أنفسهم وانقاذها من مهاوي الانحراف والعودة بها من جديد الى طريق الهدى والاستقامة . ومن هذا المنطلق نستطيع القول بأن التوبة تنطوي على بعدين تربويين :

البعد الأول : حفظ روح الرجاء من أن تخبو جذوتها لدى المذنبين الذين أسرفوا على أنفسهم في ارتكاب الجرائم واقتراف المآثم فلكي لا يظن هؤلاء أن لا مغفرة لهم بعد اسرافهم هذا فينقلبوا يائسين من رحمة الله سبحانه ، مما يجعلهم يتمادون في الانحراف والعصيان لله سبحانه شرعت التوبة في الاسلام لإنقاذ أمثال هؤلاء من حالة السقوط في بحر القنوط ومن حالة الاستسلام لظلمات المعاصي ووساوس الشيطان .

﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ﴾ [1] .

والخوف والرجاء من أهم أركان منهج التربية الاسلامية في الحياة ، فهما مبدئان قرآنيان لتربية الفرد والأمة ووضعهما على الخط الاسلامي الصحيح ، ليتهرب المسلم عما يضره خوفاً من عقاب الله القوي الشديد ويتشوق الى ما ينفعه ويصلحه رجاء مغفرة الله الواسعة ، وقد صوّر القرآن الكريم خطي « الخوف والرجاء » أروع تصوير في قوله سبحانه:

---

(١) الزمر / ٥٣ .

﴿ غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقـــاب ذي الطول لا إله الا هو اليه المصير ﴾ [1] .

وتعتبر التوبة أبرز مفهوم تربوي يجسد عنصر الرجاء في منهج التربية الاسلامية ، كما يدلنا على ذلك أثرها التربوي العظيم في اعادة المذنبين الى طريق الله المستقيم وصدّ المجرمين عن غيهم وطغيانهم وانحرافهم عن منهج الله الحكيم ، ونلمح هذا الدور الإيجابي لعنصر الرجاء في التوبة من حديث الإمام الصادق عليه السلام الذي يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله ، قال :

« قال الله عزّ وجل من أذنب ذنباً فعلم ان لي أن أعذبه وأن لي أن أعفو عنه عفوت عنه » [2] .

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق كذلك عليه السلام جاء فيه انه قال :

« ما من مؤمن يذنب ذنباً الا أجله الله سبع ساعات من النهار ، فإن هو تاب لم يكتب عليه شيء ، وان هو لم يفعل كتب عليه سيئة » [3] .

وهذه النصوص توحي للمذنبين بأن ذنوبهم مهما كثرت لا يمكن أن تقف حائلاً بينهم وبين رحمة الله سبحانه ، بشرط أن يهتدوا الى طريق التوبة والمغفرة التي هي أقرب الطرق الموصلة اليه جلّ اسمه .

ومع ذلك يبقى عنصر الخوف من الله الشديد العقاب ، وهو العنصر

---

(١) غافر / ٣ .
(٢) ثواب الأعمال / ٢١٣ .
(٣) اصول الكافي / ج٢ ، ص ٤٣٩ .

الثاني في منهج التربية الاسلاميـــة ، نعم يبقى هذا العنصر يعمل عمله التربوي كذلك ، فيوحي للمذنبين الطاغين في عصيانهم بأنهم مهما تمردوا على ارادة الله سبحانه وانحرفوا بعيداً عن رضاه وهربوا من ساحة طاعته، فهم مع ذلك محاطون من قبله محاصرون في مملكته وليس لهم مصير الا اليـه ، فليحـذروا اذن من الاصرار في عصيانهم وطغيـانهم ، فإن ورائهم حساباً ويوماً عصيباً ، يوم تبلى السرائر فما لهم من قوة ولا ناصر .

وقد أوضح الإمام الصادق عليه السلام في حديث له أهمية عنصر الخوف ، ـ كأسلوب تربوي ـ في تعبيد الإنسان المذنب التائب لله سبحانه فقال :

« ان الرجل ليذنب الذنب ، فيدخله الله به الجنة !! قلت : يـدخله الله بالذنب الجنة ؟ قال : نعم ، انه يذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله فيدخله الجنة »[1] .

البعد الثاني : وهو إنقاذ المذنبين من عقدة الشعور بالنقص والذنب أمام المتقين الطاهرين ، فالتوبة تشعرهم ـ على نحو اليقين ـ بأنهم أصبحوا في عداد الطاهرين الأتقياء بمجرد أن أعلنوا عن توبتهم لله سبحانه باخلاص والتزموا بشروط التوبة الصحيحة ، كما يـــدل على ذلـك حديث رواه الفريقان عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال :

« التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له »[2] .

---

(١) اصول الكافي / ج٢ ، ص ٤٢٦ .

(٢) جامع السعادات / ج ٣ ، ص ٦٥ .

وهكذا تصبح التوبة طريقاً تربوياً للتكامل النفسي ووسيلة للصلاح والفلاح في حياة التائبين ، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ توبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ (١) .

درجات التوبة

للتوبة درجات عديدة ترتبط بمدى قوة إرادة التائبين ، وبحسب تصميمهم على ترك الذنوب وبمستوى التزامهم بشروط التوبة ومقومات نجاحها ، وهذه الدرجات هي أربع :

الدرجة الأولى : أن يتوب الإنسان من ذنوبه ويستمر على الاستقامة فترة من الزمن ، ثم يعود إلى مقارفة المعاصي وارتكاب الذنوب ، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله هذا ، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع الشهوات ، فهذا يعتبر من جملة المصرين على ارتكاب المعاصي وتسمى نفسه « النفس الأمارة بالسوء » التي أشار اليها القرآن الكريم ، وهذا يخشى عليه من سوء الخاتمة .

الدرجة الثانية : وهي أرقى من الأولى ، وخلاصتها : أن يتوب المذنب ويستمر على الاستقامة مدة من الزمن ، ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب ، فيقدم عليها لضعف إرادته ولعجزه من قهر شهوته ، إلا انه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك لجملة من المحرمات ، وكلما فرغ من

---

(١) النور / ٣١ .

ارتكاب الذنب يندم على فعله ، ويقول : يا ليتني لم أفعله ، وساتوب عنه وأجاهد نفسي حتى أقهرها ، لكن نفسه دائماً تسوّل له عكس ذلك وتدعوه إلى ارتكاب المعاصي ، ثم إلى التوبة ، وهكذا يتوب ويخرق توبته مرة بعد أخرى ، وتسمى نفس هذا المذنب بالنفس المسوّلة ، وصاحبها من الذين قال الله سبحانه فيهم :

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً ﴾ (١) .

وأمر هذا « التائب المذنب » من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه من المعاصي مرجو ، فعسى الله أن يتوب عليه ، ولكن عاقبته في خطر من حيث تسويفه في التوبة وتأخيره في الإقدام على المغفرة ، فلربما يختطف قبل أن يتوب .

الدرجة الثالثة : وهي درجة التائب الذي سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات ، وترك كبائر الذنوب والمعاصي كلها إلا انه ليس ينفك عن بعض المعاصي التي تعتريه بين فترة وأخرى ، ولكن لا عن عمد بل يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يعزم إعزاماً قوياً للاحتراز من أسبابها التي تقوده لها ، ونفس هذا التائب تسمى بالنفس اللوامة ، وهي كذلك مذكورة في القرآن الكريم .

الدرجة الرابعة : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ويتدارك ما فرط في أمره ، ولا يحدّث نفسه بالعودة إلى ذنوبه إلا الزلات

---

(١) التوبة / ١٠٢ .

التي لا ينفك عنها البشر إلا من عصم ، فهذا هو الذي استقام على التوبة « النصوح » وهي أعلى درجات التوبة من حيث الالتزام ، واسم نفس صاحبها « النفس المطمئنة » ، وهي التي قال الله سبحانه عنها :

﴿ يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ﴾ [1] .

وأصحاب هذه الدرجات إلى قسمين :

أ ـ منهم من تاب وسكنت شهواته تحت قهر المعرفة الايمانية والحب الخالص لله سبحانه ، والايمان الثقيل الذي لا يتحمله إلا صاحبه ، ولم ينشغل بصراع نفسه في سلوك طريق الإيمان الكامل ...

ب ـ ومنهم من تاب بقوة إرادته وخوفه الشديد من الله تعالى ، وهذا دائماً يصارع شهواته لأنها تلح وتضغط عليه وتطلب منه الاستجابة إلى مطالبها المحرمة ، ولكنه قوي بمجاهدتها وكسر جماحها وردها . .

والمستفاد من الروايات ان الثاني له فضل وثواب أعظم من الأول ، والله سبحانه أعلم بذلك .

التوبة النصوح

تحدثنا في الموضوع السابق عن درجات « التوبة والتائبين » وانتهى بنا المطاف إلى الدرجة الرابعة من التوبة ، وهي أعلى درجات التائبين وتسمى بالتوبة « النصوح » وهنا نريد أن ندخل في تفاصيل هذه الدرجة

---

(١) الفجر / ٢٧ .

من التوبة التي هي في الحقيقة تعبير عن واقعية الدين الإسلامي في تربية معتنقيه تربية صالحة كما هي دليل على حكمته ودقته في معالجة انحرافاتهم المزمنة المستعصية التي لا تزول إلا بالمعانات والاعتناء التربوي الهادف ، فالإسلام لم يكتف بالمواعظ التنظيرية لحث المذنبين والمجرمين على ترك عصيانهم وإجرامهم والتزام الطاعة والقيام بالعمل الصالح ، وإنما وضع لهم منهجاً تربوياً شاملاً كاملاً ودعاهم إلى الالتزام به وتطبيقه ... منهجاً ينقذهم من الأجواء المنحرفة ويخلصهم من الظواهر المرضية المستحكمة في نفوسهم وسلوكهم ويساعدهم على الصمود أمام دواعي السقوط ويأخذ بأيديهم نحو طريق الله المستقيم . وقد أطلق الإسلام على هذا المنهج اسم « العمل الصالح » بعد « التوبة النصوح » وتولى أهل البيت عليهم السلام توضيح معناه للامة وشرح معالمه الرئيسية وبينوا أحكامه الشرعية ومنهجه التربوي . فما هو يا ترى معنى « التوبة النصوح » وما هي أهدافها التربوية ، وما هو برنامجها العملي ؟ ؟

معنى التوبة النصوح لغة وشرعاً

النصح يأتي لغة بمعنى : الإخلاص نحو نصحت له الود، أي أخلصته[1] فالتوبة النصوح هي الذي تصرف صاحبها عن المعصية وتخلصه من الرجوع إلى الذنب وذلك بتحري جميع الطرق التربوية التي تصده عن المعصية .

ومعناها شرعاً : هي التوبة التي لا يعود فيها التائب إلى الذنب الذي

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الاصفهاني مادة (نصح) .

تاب عنه على ما ورد عن أبي صباح الكناني، قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن معنى قول الله عزّ وجل :

« يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا » .

فقال : « يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه » [1] .

وفي رواية اخرى عن أبي بصير قال : سألت الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير قوله :

« يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا » .

فقال : « هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً ! قلت : وأينا لم يعد ؟ فقال : يا أبا محمد ان الله يحب من عباده المفتن التواب » [2] .

فالتوبة النصوح إذاً إنابة مخلصة صادقة تنصح القلب وتخلصه من رواسب المعاصي وتظل تذكر صاحبها وتنصحه لئلا يعود إلى الذنب مرة أخرى ، لذلك سميت توبة نصوحا .

ويستفاد من رواية أبي بصير ـ رضوان الله عليه ـ ان التوبة النصوح لا تجعل صاحبها معصوماً عن ارتكاب الذنوب ـ كما ربما يتصور البعض ـ فإن هذا خلاف طبيعة البشر المعجونة بالخير والشر ، فصاحب التوبة النصوح قد يقع بعدها في زلات المعاصي التي لا ينفك عنها بنو آدم أبداً ،

---

(١) اصول الكافي / ج٢ ، ص ٤٣٢ .

(٢) نفس المصدر .

غاية الأمر ان هذه التوبة هي أفضل أنواع التوبة لأنها تضع التائبين على طريق الانابة الصادقة لله سبحانه ، والاستقامة الصحيحة على منهجه ، ومن صفات صاحبها انه كلما أذنب رجع بسرعة إلى ربه نادماً مستغفراً ذنبه ، فيبقى متمسكاً بحبل التوبة النصوح ولا يترك رين المعاصي تتراكم على قلبه ، بل يجلوها دائماً بالاستغفار متمسكاً بقول رسول الله ﷺ : « لكل داء دواء ، ودواء الذنوب الاستغفار »[1] ، وفي حديث آخر عنه كذلك ، قال ﷺ : « طوبى لمن وجد في صحيفة عمله يوم القيامة تحت كل ذنب استغفر الله »[2] .

فالتائب توبة نصوحا إنسان تقي مواظب على الطاعات ، مجتنب للمحرمات مراقب لنفسه في كل الحالات،فإذا داهمته ساعة الغفلة وأوقعته في المعصية رجع بسرعة إلى ربه مستغفراً ذنبه وهو على خجل مما فعل .

الاسلام يحث على التوبة النصوح

تختلف التوبة النصوح في أسلوب ممارستها عن درجات التوبة الثلاث التي قبلها ، فالتوبة العادية تقع من المذنب بمجرد أن يندم ويستغفر ويقوم ببعض الأعمال الصالحة ، بينما تتميز التوبة النصوح عن التوبة العادية بميزات خاصة على الصعيد النفسي والتطبيقي ـ كما سنستعرضها بعد قليل ـ وهذه الميزات هي التي تجعلها أكثر قدرة من غيرها على هداية

---

(١) ثواب الأعمال / ١٩٧ .

(٢) نفس المصدر .

صاحبها ووضعه على خط الاستقامة الثابت ومن هذا المنطلق ورد الحث عليها كثيراً في القرآن الكريم وعلى لسان اهل البيت عليهم السلام ، ومما ورد بشأنها في القرآن الكريم قوله سبحانه :

﴿ يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ [1] .

وروي عن رسول الله ﷺ انه خطب يوماً بالمسلمين فقال :

«أيها الناس توبوا إلى الله توبة نصوحا قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ... وأصلحوا بينكم وبين ربكم تسعدوا ...» [2] .

وروي عن ابن وهب انه سمع الإمام الصادق عليه السلام يقول :

« إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت : وكيف يستر عليه ؟ قال : ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب ويوحي إلى جوارحه : اكتمي عليه ذنوبه ويوحي إلى بقاع الأرض اكتمي ما كان يعمل عليك من الذنوب ، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب » [3] .

التوبة النصوح وازدواج الشخصية

من أخطر مايعانيه المذنبون من مشاكل نفسية ـ في المجتمع الإسلامي ـ

---

(١) التحريم / ٨ .
(٢) إرشاد القلوب / ج ١ ، ص ٤٥ .
(٣) اصول الكافي / ج٢ ، ص ٤٣٠ .

هو فقدانهم لحالة الانسجام والتطابق بين رغباتهم الذاتية وممارساتهم السلوكية ، فالمذنبون في حالة صراع دائم بين الاستجابة لمذاتهم الخبيثةمن جهة وبين الالتزام بقيم الدين وتقاليد المجتمع وعاداته الخيرة من جهة أخرى . فهم من أجل أن يعكسوا للمجتمع لوناً من الانسجام بيندوافعهم الذاتية والقيم الاجتماعية التي تحكمه يتظاهرون للآخرين بخلاف واقعهم النفسي فيحاولون التحدث لهم بالشرف والقيم والكرم ويتظاهرون بالتمسك بأفعال الصالحين وصفاتهم كذباً ورياء ونفاقاً لأنهم- في واقعهم - أبعد الناس عن ذلك ، بل هم في حقيقتهم - وكما يعرفون أنفسهم - لأشد شراسة من الوحوش الكاسرة حين الاقدام على المحرمات في غلس الظلام ، وعندما يتأكدون من عدم وجود المراقب لهم من بني البشر !!

وتسبب هذه الحالة في كثير من الأحيان للمذنبين اضطراباً في شخصيتهم وتذبذباً واضحاً في سلوكهم .

وهذه الحالة تنتهي بكثير من المذنبين وخاصة المجرمين منهم إلى مرض نفسي خطير يطلق عليه علماء النفس اسم مرض « الازدواج في الشخصية »[1] وتسميه الشريعة الاسلامية « مرض النفاق »[2] وقد يؤدي هذا المرض النفسي الخطير بالمذنبين إلى أمراض أخطر منه كل

---

(١) النفاق هو أحد أعراض ازدواج الشخصية في رأي علم النفس .

(٢) هذه الحالة من مظاهر النفاق في الاسلام ، لأن النفاق في الفهم الاسلامي له صور متعددة .

ذلك نتيجة لعدم تطابق الدوافع الذاتية للمذنبين مع القيم والتقاليد السائدة في مجتمعاتهم ، ويمكن أن تحل مشكلة عدم التطابق هذه بسلوك أحد طريقين :

أحدهما : أن يكشف المذنب عن حقيقته للآخرين ، فيكسر حاجز الحياء ويتصرف بدون أن يكترث بهم ولا بالقيم الدينية أو التقاليد الاجتماعية التي تحكم مجتمعه فيظهر للناس كأي مجرم مكشوف في انحرافه وعدم التزامه بالقيم والأخلاق الفاضلة ، فحينئذ تتطابق دوافعه الذاتية مع واقعه السلوكي ، وتنحل عنده مشكلة الازدواج في الشخصية

وهذا اللون من العلاج مرفوض في الشريعة الإسلامية ، لأنه وإن كان يعالج بعض جوانب مرض ازدواج الشخصية إلا انه يوقع الإنسان في أمراض نفسية وجسمية واجتماعية أخرى ـ لا مجال للحديث عنها هنا ـ وهي أخطر بكثير من مرض الازدواج في الشخصية ، أو بتعبير ديني مرض النفاق السلوكي .

ثانيهما : أن يتوب الإنسان المذنب توبة نصوحا فيتخلص من هذا المرض النفسي الخطير ، حيث تصبح دوافعه الذاتية منسجمة انسجاماً كلياً مع سلوكه وتصرفاته وإلى هذا المعنى أشار الإمام الصادق عليه السلام حينما سألوه عن التوبة النصوح ، فقال :

« أن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل »[1] .

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٣٦١ .

قلنا قبل قليل ان التوبة النصوح تختلف عن التوبة العادية بما تتميز به من خصائص ومقومات تربوية تجعلها أكثر قدرة من غيرها على هداية صاحبها ووضعه على خط الاستقامة الثابت ، وهنا لا نريد أن نتعرف على المعالم الرئيسية للمنهج التربوي لهذه التوبة من خلال المفاهيم والأفكار التربوية التي أثارها أهل البيت (ع) حول أسلوب ممارستها .

ويمكننا تحديد هذا المنهج التربوي للتوبة النصوح على ضوء أحاديث أهل البيت (ع) في أربع خطوات رئيسة ، وهي :

الخطوة الأولى : التخطيط للتوبة .

الخطوة الثانية : إعلان التوبة .

الخطوة الثالثة : تطبيق الخطط والمقررات العملية للتوبة .

الخطوة الرابعة : المراقبة الذاتية والمحاسبة اليومية .

الخطوة الأولى : التخطيط للتوبة

ينصح علماء النفس والتربية ذوي العادات السيئة كشرب الخمر أو الافيون ـ مثلاً ـ بأن لا يصمموا تصميماً ارتجالياً فورياً من أجل التخلي عن عاداتهم المستحكمة السيئة ، لأن التصميم الفوري إذا لم يكن مدروساً لا يدوم طويلاً بل سرعان ما ينهار ويرجع صاحبه إلى عادته القديمة ، وترى التربية الإسلامية كذلك انه من الضروري للمذنب قبل أن

يمارس أعمال التوبة النصوح أن يحاول اكتشاف جوانب الضعف في حياته وذاته وشهواته ، تلك التي يمكن أن تسبب له التراجع عن قرار التوبة ، وعلى ضوء هذا الاكتشاف يضع التائب خطته التربوية الشاملة التي تكفل له المسيرة قدماً بنجاح نحو التوبة النصوح ، ويطرح الإمام الصادق عليه السلام هذا الرأي حينما يسأل عن تفسير قول الله تعالى :

« توبوا إلى الله توبة نصوحا » فيقول :

« هو صوم يوم الأربعاء والخميس والجمعة »[1] .

« فالصوم امتحان واختبار لصدق الإنسان مع الله لأنه يضع الإنسان في امتحان عسير يتطلب منه الانقطاع من كل متع الحياة ... من الطعام والشراب والملذات .. الخ ، فالصائم يعبر بصيامه عن انتصار حب الله والاخلاص له على حب نفسه ومتعها ولذائذها ... وهذا الانتقال من حب الذات والشهوات إلى حب الله والتعلق به يحدث أروع آثار التغيير داخل كيان الصائم ... التغيير الذي يحقق له الارتباط بالله والتوبة اليه ، والتقرب منه والنظر إلى كل شيء في الحياة من خلال هذه العلاقة مع الله .. وعندما يحتل الصائم هذا الموقع من الإيمان تكون ذاته قد تجاوزت مراحل التمرغ بأوحال الانحراف والشذوذ وسلكت سبيل التكامل والصمود نحو عالم السمو الروحي معلنة بتجربتها العملية ـ الصوم ثلاثة أيام ـ كف

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٣٦٣ .

النفس عن كل محرم ، فيكون هذا الموقف التجريبي مدخـــلاً للاعلان الصادق عن التوبة النصوح والاستقالة من الذنوب والمعاصي ومفارقـــة الجرائم والمآثم ، فتدخل النفس التائبـــة عن استحقـاق أبواب المغفرة والقرب الإلهي ، بعد أن مرت بتجربة الرفض والخـلاص من الذنوب في ثلاثة أيام من الصيام .

فتكتشف عن طريق الصوم قيمة الإخلاص لله وقابليتها في مواجهة الشهوات والملذات وقدرتها على تحدي كل المغريات التي تسبب لها الوقوع في المحرمات »[1] ان ثلاثة أيام من الابتهال والصوم والعبادة والانقطـــاع الروحي لله والتأمل والتفكير بأضرار الذنوب والتخطيـــط الشامل للتخلص منها كافية لوضع خطة ناجحة ومدروسة تساعد التائب على المضي في العمل الصالح والتوبة النصوح وعـدم العودة إلى الذنوب . ومن هنـا ندرك مغزى حديث الامام الصادق عليه السلام السابق . فصوم الأيام الثلاثـة هي فترة ترويضية يقضيها التائب في حالة ترقب وترصد لذاتـه ليكشف من خلال ذلك نقاط الضعف في شخصيته التي يمكن أن يغزوه الشيطـان من خلالها ، وعلى ضوء ذلك يضع خطته التربوية التي تساعده على الاقلاع عن جميع المعاصي وعدم العودة اليها نهائياً . مستعينـــاً بالمنهج التربوي العملي الذي وضعه أهل البيت (ع) في هذا المجال[2] .

---

(١) الصوم عبادة وتربية / ص ١٣ ـ ١٤ (باختصار وتصرف) .

(٢) كما ستعرف ذلك في الحديث حول الخطوة الثالثة .

ويقدم التائب عليها بعد أن يضع خطته الشاملة التي تبعده عن الأجواء المنحرفة وتثبته على القيام بالأعمال الصالحة ، وتشتمل هذه الخطوة على ثلاثة أعمال عبادية مهمة ، وتكون هي المدخل الرئيسي لاعلان التوبة النصوح كما جاء ذلك عن الامام الصادق عليه السلام وهذه الأعمال الثلاثة هي : « القيام بغسل التوبة » و « اداء صلاة التوبة » و « التضرع إلى الله وطلب المغفرة منه »[1] .

ولا مانع أن تقع هذه الخطوة ضمن الخطوة الأولى ما دامت هي خطوة عبادية محضة ، ولا تتعارض مع كون الأيام الثلاثة من الصوم لاختبار الذات والتخطيط لمواجهة نقاط الضعف فيها ...

وقد دلَّ على هذه الأعمال الثلاثة في الخطوة الثانية ما رواه مسعدة بن زياد عن الامام الصادق عليه السلام ، قال :

« كنت عند أبي عبد الله ـ يعني الامام الصادق عليه السلام فقال له رجل : بأبي أنت وأمي ادخل كنيفا ، ولي جيران وعندهم جوار يتغنين ويضربن بالعود ، وربما أطلت الجلوس استماعاً مني لهن ، فقال عليه السلام لا تفعل فقال الرجل : والله ما آتيهن انما هو سماع أسمعه بأذني ، فقال عليه السلام بالله أنت ما سمعت الله يقول : « ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه

---

(١) من المستحب هنا قراءة أدعية التوبة ، وأهمها دعاء الصحيفة السجادية.

مسؤولا » ؟ فقال : بلى والله ، كاني لم أسمع بهذه الآية من كتاب الله من عربي ولا عجمي ، لا جرم اني لا أعود إن شاء الله واني أستغفر الله ، فقال له : قم فاغتسل ، وصلّ ما بدا لك ، فإنك كنت مقيماً على أمر عظيم ، ما كان أسود حالك لو مت على ذلك ، أحمد الله وسله التوبة من كل ما يكره ، فإنه لا يكره إلا كل قبيح ، والقبيح دعه لأهله فإن لكل اهلا »[1] .

فقد بينت هذه الرواية على ان هذا الانسان كان مصراً على معصيته ، فهو إذاً بحاجة إلى أن يتوب منها توبة نصوحا،والغسل والصلاة والتضرع إلى الله وطلب المغفرة منه أعمال عبادية دلّت هذه الرواية على ضرورة القيام بها لكل من أراد التوبة النصوحة من ذنوبه كما استظهر منها ذلك شيخنا البهائي رحمه الله[2] .

وفي رواية أخرى ذكرها ابن طاووس عن رسول الله ﷺ تناولت هذه الأعمال العبادية الثلاثة الصالحة في التوبة المخلصة ، وهي تختلف عن رواية الامام الصادق عليه السلام ، وللفائدة التربوية نذكرها هنا وهي عن أبي أمامة عن أنس بن مالك ، قال : خرج رسول الله ﷺ يوم الأحد في شهر ذي القعدة ، فقال :

« يا أيها الناس من كان منكم يريد التوبة ؟ قلنا : كلنا نريد التوبة

---

(١) الوسائل / ج ٢ ، ص ٦٥٧ .

(٢) في كتابه الأربعين / ص ٢٤٥ .

يا رسول الله ، فقال ﷺ اغتسلوا وتوضأوا وصلوا أربع ركعات واقرأوا في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمعوذتين مرة : ثم استغفروا سبعين مرة ، ثم اختموا بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قولوا « يا عزيز يا غفار اغفر لي ذنوبي وذنوب جميع المؤمنين والمؤمنات فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ، ثم قال ﷺ : ما من عبد من أمتي فعل هذا إلا نودي من السماء يا عبد الله استأنف العمل، فإنك مقبول التوبة ، مغفور الذنب ، وينادي ملك الموت من تحت العرش: أيها العبد بورك عليك وعلى أهلك وذريتك ، وينادي مناد آخر : أيها العبد ترضى خصماؤك يوم القيامة ، وينادي ملك آخر : أيها العبد تموت على الإيمان ولا أسلب منك الدين ويفسح في قبرك وينور فيه، وينادي مناد آخر : أيها العبد يرضى أبواك وإن كانا ساخطين ، وغفر لأبويك ذلك ولذريتك وأنت في سعة من الرزق في الدنيا والآخرة وينادي جبرائيل عليه السلام أنا الذي آتيك مع ملك الموت عليه السلام أن يرفق بك ولا يخدشك أثر الموت إنما تخرج الروح من جسدك سلا - وفي رواية أخرى « سلاما » - » .

قلنا يا رسول الله ، لو أن عبداً قال ذلك في غير هذا الشهر ؟ فقال ﷺ : « له مثل ما وصفت ، وإنما علمني جبرائيل عليه السلام هذه الكلمات أيام أُسري بي »[1] .

---

(١) الاقبال / ص ٣٠٨ .

يبدأ التائبون في هذه الخطوة بممارسة الخطط التربوية العملية للتوبة وفقاً لمنهج تربوي تطبيقي تقرره التربية الإسلامية ، وتهدف مجمل خطط هذا المنهج في هذه الخطوة إلى تخليص التائبين من العوامل الذاتية والخارجية التي كانت سبباً لانحرافهم .

وهذا المنهج يشتمل على نوعين من الخطط التربوية في هذا المجال ، خطط ثابتة تكفلت التربية الإسلامية بوضعها وبيانها ... وخطط مرنة يضعها التائب لنفسه انطلاقاً من إحاطته بعوامل الانحراف ـ في ذاته وحياته ـ التي تسبب له الوقوع في المحرمات .

وسنقتصر هنا على الكلام عن منهج الخطط التربوية الثابتة في هذه الخطوة ... ولدينا روايات ونصوص إسلامية عديدة اهتمت برسم المعالم الرئيسة لهذا المنهج ، ولكن للاختصار سنعرض روايتين منها فقط :

الرواية الأولى :

جاء في نهج البلاغة ان أمير المؤمنين عليه السلام ردّ على رجل قال بحضرته « استغفر الله » قائلاً :

« ثكلتك أمك ! أتدري ما الاستغفار ؟ ان الاستغفار درجة العليّين، وهو اسم واقع على ستة معان : أولها : الندم على ما مضى ، والثاني : العزم على ترك العود اليه أبداً ، والثالث : أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عزّ وجل أملس ليس عليك تبعة ، والرابع : أن تعمد إلى كل

فريضة عليك ضيعتها ، فتؤدي حقها ، والخامس : أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم ، وينشأ بينهما لحم جديد ، السادس : أن تذيق الجسد ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : استغفر الله »[1] .

الرواية الثانية :

وردت في كتاب مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام ، قال فيها :

« ... وأما توبة العام فان يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة والاعتراف بجنايته دائماً ، واعتقاد الندم على ما مضى والخوف على ما بقي من عمره ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك إلى الكسل ويديم البكاء والأسف على ما فاته من طاعات الله ، ويحبس نفسه عن الشهوات ويستغيث إلى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود إلى ما سلف ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة ، ويقضي على الفوائت من الفرائض ويرد المظالم ويعتزل قرناء السوء ، ويسهر ليله ويظمأ نهاره ويتفكر دائماً في عاقبته ويستعين بالله سائلاً منه الاستقامة في سرائه وضرائه ، ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسقط عن درجة التوابين ، فإن في ذلك طهارة من ذنوبه وزيادة في عمله ورفعة في درجاته ، قال الله عزّ وجل : « وليعلمن

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / ج ٢٠ ، ص ٥٧ .

الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »[1] .

ويظهر من مضمون هذين الحديثين انهما يتفقان في تسليط الأضواء على أهم الأسس التربوية التي ينبغي أن ينطلق منها كل من أراد أن يطرق باب التوبة النصوح محاولاً الوصول إلى درجة عالية من درجات الإيمان والالتزام الصحيح .

واليك ـ قارئي الكريم ـ أهم الارشادات التربوية المشار اليها في هذين الحديثين ، والتي لا بدَّ لكل من أراد أن يسلك طريق التوبة النصوح أن يتمسك بها ، وهي :

١ ـ أن يظهر التائب الندم الشديد على حياته الماضية التي قضاها في أجواء الانحراف والشهوات المريضة بعيداً عن طاعة الله سبحانه ، وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام في حديثه السابق إلى هذه الفقرة بقوله : « وأما تسوية العام فان يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة والاعتراف بجنايته دائماً واعتقاد الندم على ما مضى » .

٢ ـ أن يشدد العزم بارادة قوية وتصميم أكيد على عدم الرجوع إلى ما كان عليه من انحرافات سابقة ، وإلى هذه الفقرة أشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « العزم على ترك العود اليه[2] أبداً[3] » .

---

(١) مصباح الشريعة / ٩٧ ـ ٩٨ .

(٢) الضمير يعود إلى الذنب .

(٣) ويؤدي التائب هذين الفقرتين في الخطوة الثانية كما عرفت .

٣ ـ أن يحصي الفرائض التي فاتته في وقت انحرافه إلى يوم توبته ويقضي كل ما فاته من هذه الطاعات الواجبة كالصلاة والصيام وأداء الحقوق من الخمس والزكاة والحج ... الخ . فإنه لا طريق للتوبة من هذه المخالفات جميعاً إلا أن يجتهد في قضائها وادائها بقدر الإمكان ، ولا يترك في عهدته شيئاً منها، وأشير إلى هذه الفقرة في حديث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدي حقها ... » .

٤ ـ أن يؤدي إلى الآخرين حقوقهم التي اعتدى عليها أيام انحرافه ، سواء كان اعتداءه على أموالهم أو أرواحهم أو دينهم أو أعراضهم أو كراماتهم، فيجب عليه أن يستوهب منهم ويرضيهم بقدر استطاعته[1] .. وقد لا يتمكن من إرضائهم لسبب ما[2] ، فما عليه إلا أن يكثر من الاستغفار والأعمال الصالحة والتصدق نيابة عمن اعتدى على حقوقه ، فإنه ليس ببعيد على كرم الله تعالى أن يشمله برحمته ومغفرته الواسعة فيرضي خصمائه عنه يوم القيامة حينما يجده في الدنيا مخلصاً في توبته ، صادق السريرة في انابته .

ذكرت هذه الفقرة في حديث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في قوله «أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك

---

(١) ولعلماء الأخلاق هنا كلام طويل أعرضت عنه لأهداف تربوية .

(٢) كموت من اغتابه ، أو كالفقر وعدم قدرته على إرجاع ما سرقه أو كخوف القتل ان أخبر الزوج انه زنى بزوجته أو غير ذلك .

تبعة ... » يعني من تلك الحقوق .

٥ ـ اعتزال ذوي الأخلاق السيئة والابتعاد عن أصدقاء الشر وخاصة اولئك الذين كانوا سبباً لانحرافه ، وبالمقـــابل ينبغي له أن يفتش عن الأخيار ، ويقصد مجالسهم ويتخـذ منهم أصدقاء جدد له ، ويطلب منهم إرشاده ونصيحته ، ويظهر لهم قبول ذلك منهم ... ذكر ذلـــك الإمام الصادق عليه السلام بقوله : « ويعتزل قرناء السوء ... » .

٦ ـ أن يبتعد عن جميع الأجواء الاجتماعيـة والفكرية وغيرها التي كانت تسبب له الوقوع في المعاصي كالدخول إلى دور السينما ومجالس اللهو ، وأماكن السباحة وحدائق النزهة المبتـــذلة . وأن يتجنب قراءة الكتب والصحف والمجلات والنشرات التي تثير في نفسه كوامن الشهوة المريضة وتوجد في نفسه الشوق إلى المحرمات التي كان مولعاً بها قبل توبته .

وإلى هـذا المعنى أشار الإمام الصـادق عليه السلام بقوله « ويحبس نفسه عن الشهوات ... » .

٧ ـ أن يسأل الله سبحانه الثبات على خط التوبـــة النصوح وعدم الرجوع إلى ممارساته المنحرفة القديمة ... وهذه الفقرة التربوية تعتبر عند أهل العرفان والإخلاص من أهم مقومات الثبات على التوبة النصوح . وهي كذلك من أبرز علائم الإخلاص في طلب التوبة من الله سبحانه . ولهـذا كان الإمام زين العابدين عليه السلام يقول في دعاء التوبة :

« اللهم وانه لا وفاء لي بالتوبة إلا بعصمتـك ، ولا استمساك بي عن

الخطايا إلا عن قوتك ، فقوني بقوة كافية وتولني بعصمة مانعة ، اللهم أيما عبد تاب اليك وهو في علم الغيب عندك فاسخ لتوبته وعائد في ذنبه وخطيئته ، فإني أعوذ بك أن أكون كذلك ، فاجعل توبتي هذه توبة لا أحتاج بعدها إلى توبة ، توبة موجبة لمحو ما سلف والسلامة فيما بقي»[1] .

وقد نص على هذه الفقرة التربوية الإمام الصادق عليه السلام في قوله :

« ويستغيث إلى الله ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه في العود إلى ما سلف .. ويستعين بالله سائلاً منه الاستقامة في سرائه وضرائه ... » .

٨ ـ أن يتروي في كل خطوة أو كلمة يريد أن يقوم بها لئلا تصدر منه بعض الانحرافات التي كان قد اعتاد على ممارستها قبل التوبة، ويمكن أن نستوحي هذه الفقرة من العبارة التالية للإمام الصادق عليه السلام في قوله « ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة .. » فإن من أهم مقومات مجاهدة النفس الأمارة بالسوء هو سيطرة الإنسان على حركاته وسكناته وجميع مشاعره وجوارحه سيطرة قيادية ناجحة ، بحيث لا يسمح لها أن تنحرف عن تعاليم السماء والقيم العليا في الحياة .

٩ ـ أن لا ينهار أمام مغريات الشهوات ولا يسقط عن درجة التائبين عندما تتهيأ أمامه دواعي الانحراف . فالإنسان إذا كان منحرفاً ثم تاب لا يعني هذا انه سوف لا يواجه بعد ذلك عوامل الإنحراف وأجوائه في

---

(١) الصحيفة السجادية/دعاء التوبة .

حياته ، بل هو معرض دائماً إلى الامتحان الإلهي وخاصة الإنسان المؤمن كما قال الله سبحانه :

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [1] .

فينبغي على التائب المخلص في توبته أن يكون صلباً تقياً أمام زخارف الدنيا وشهواتها المحرمة ، وأن يكون ورعاً يخشى الله في السر والعلانية فإن ذلك دليل واضح على صدق توبته ، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام « أن يثبت عند المحن كيلا يسقط عن درجة التوابين فإن ذلك طهارة من ذنوبه وزيادة في عمله ورفعة في درجاته ، قال الله عزّ وجل : « وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . . » .

١٠ ـ أن يكثر التائب من الأعمال الصالحة بعد التوبة سواء كانت هذه الأعمال الصالحة « عبادية روحية » أو اجتماعية خيرية » وبهذا الصدد قال علماء الأخلاق : انه لا يكفي لمحو آثار المعاصي التي انطبعت في القلب مجرد التوبة منها ، بل لا بدّ من محو آثارها بنور الطاعات إذ كل معصية صدرت من الإنسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه ، فإذا تراكمت ظلمات المعاصي على القلب صارت رينا ، كما قال الله سبحانه « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » [2] فإذا تراكم الرين وطال زمانه تحول

---

(١) العنكبوت / ٢ .
(٢) المطففين / ١٤ .

إلى سجية في السلوك فينطبع على أثره « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون »[1] .

فالتائب لا يكفي لإصلاح نفسه مجرد تركه للمعصية بل لا بدَّ له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه ، وطريقة ذلك هو أن يتبع السيئة بالحسنة ، فكما ترتفع إلى النفس ظلمة من المعاصي فتجعلها سوداء مظلمة ، فكذلك يرتفع نور من الطاعات واجتناب المحرمات فينورها ، وبهذا النور تنمحي ظلمة المعاصي ، لأن المرض هنا عولج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب لا يمحوها إلا نور يرتفع اليه من حسنة تضاد[2] تلك السيئة التي ارتكبها ، وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم بقوله « إن الحسنات يذهبن السيئات »[3] . وروي عن النبي ﷺ بهذا المعنى قوله : « اتبع السيئة الحسنة تمحها »[4] .

وهذا هو العمل الصالح الذي دعا اليه القرآن الكريم كثيراً حينما كان يخاطب أصناف المنحرفين عن هدي الله تعالى ويدعوهم للتوبة من

---

(١) التوبة / ٨٧ .

(٢) لا نريد بالتضاد هنا معناه المنطقي ، بل نريد معناه العام خلافاً لما ذهب اليه بعض علماء الأخلاق من ضرورة مقابلة النفاق ـ مثلاً ـ بالاصلاح بين الآخرين. وهكذا باقي المحرمات ، فان هذا الرأي لا يستفاد من النصوص التي دلت على مقابلة السيئة بالحسنة لمحوها .

(٣) هود / ١١٤ .

(٤) جامع السعادات / ج ٣ ، ص ٦٣ .

ذنوبهم . فكانت أكثر آياته التي تدعوهم للتوبة تختم بحثهم على العمل الصالح بعد رجوعهم إلى الله تعالى

وهذا في تصوري أفضل أسلوب تربوي يمرن التائب على الطـــاعات بعدما كان معتاداً على ممارسة المحرمات ، وهو في نفس الوقت أفضل طريقة عملية لتثبيت كراهية المعصية في نفس التائب الذي كان مولعاً بالمحرمات.

وهذه جملة من الآيات القرآنية التي تدعو المذنبين إلى العمل الصالح بعد التوبة فإنهـــا كلها تؤكد هذا البعد التربوي الذي أشرنا اليه :

قال سبحانه :

﴿ الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فاولئك اتوب عليهـــم وانا التواب الرحيم ﴾ (١) .

﴿ الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم ﴾ (٢) .

﴿ ... الا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحـــا فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا ﴾ (٣) .

﴿ ... الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئـــاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾ (٤) .

﴿ ... ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا ﴾ (٥) .

---

(١) البقرة / ١٦٠ .
(٢) آل عمران / ٨٩ .
(٣) مريم / ٦٠ .
(٤) الفرقان / ٧٠ .
(٥) الفرقان / ٧١ .

﴿ ... الا الـــذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله واولئك مع المؤمنين ﴾ [1] .

وأشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حديثه السابق إلى هـذه الفقرة التربوية بقوله : « ... أن تعمـد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبـه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد .. وأن تـذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول أستغفر الله » .

الخطوة الرابعة : المراقبة الذاتية والمحاسبة اليومية

التائبون الذين كانوا معتادين على ارتكاب المعـاصي ليس من السهولة أن يتخلوا عنها بسرعة ، فالعادة مهما كان نوعهـــا تتحول بمرور الزمن وبكثرة ممارستها والمداومة عليها إلى سجية تشبه السجايا الطبيعيـــة في سلوك الإنسان ولهذا قيل أن العادة طبع ثان .. فهو وإن تركها عن قناعة ولكن ليس من البعيد جداً أن يقع فيها عن غفلة مرة ثانية ، فيرجع بعد ذلك إلى ما كان عليه من انحراف وحب وامتهان لها .. ومن هذا المنطلق كان لا بدّ من دخول عامل تربوي رابع في منهج التوبة النصوح، وتكون مهمة هذا العنصر التربوي هو تثبيت التائب على توبته فيبقيه على طريق الاستقامة ويعوده على الالتزام بالطاعات ومجانبة المحرمات .

وتطلق التربية الإسلامية على هذا العامل التربوي اسم (المراقبـــة الذاتية والمحاسبة اليومية) .

---

(١) النساء/ ٦٤ .

ومعنى « المراقبة » هو أن يتابع الإنسان نفسه ويراقب ظـــاهرها وباطنها ويلاحظها طول يومه حتى لا تقدم على شيء من المعـــاصي، ولا تترك شيئاً من الواجبات .

ومعنى « المحاسبة » هو أن يعين في كل يوم وليلة وقتاً يحاسب فيـه نفسه بعد أن يوازن بين حسناته وسيئاتـــه التي عملها في ذلك اليوم فإن وجدها مقصّرة في طاعة أو مرتكبة لمعصية عاتبهـــا ولامها لوماً عنيفاً ووبخها توبيخاً شديداً وقهرها على بعض الطاعات عقاباً لها على تقصيرها ، وإن وجدها قد أتت بجميع الطاعات ولم يرتكب المحرمات في طول ذلك اليوم شكر الله تعالى على ذلك وطلب منه العون والتوفيق في الاستمرار على هذا الحال .

ولا تختص هذه العملية التربوية اليومية « بالتائبين » فقط ، وإنما هي ضرورية لكل مسلم متعبد لله ومتمسك بحبل التقوى ، وتتأكد ضرورتها بالنسبة للتائبين ... ولهذا نجد النصوص الإسلامية الواردة في الحث عليها عامة لا دليل فيها على توجيه الخطاب إلى خصوص التائبين فقط .

قال سبحانه :

﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ... ﴾ (١) .

فإن المراد بهذا النظر هو محاسبة الإنسان المسلم لنفسه ، كما فسّر ذلك علماء الأخلاق .

---

(١) الحشر / ١٨ .

وقال رسول الله ﷺ :

« حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا »[1] .

وقال الإمام الصادق عليه السلام :

« ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كل يوم ، فإن عمل حسنة استزاد الله تعالى ، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه »[2] .

والخلاصة : ان التائب مهما كان معتاداً على ارتكاب المعاصي واقتراف السيئات فإنه بمجرد أن ينشغل بعد التوبة بمجاهدة نفسه وفقاً لبرنامج « المحاسبة والمراقبة » فإن الله سبحانه حتماً سيأخذ بيده إلى طريق الصالحين ويرفعه إلى درجات المتقين والمقربين من ساحة قدسه جلّ وعلا كما وعد في كتابه الكريم حينما قال :

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ﴾[3] .

---

(١) جامع السعادات/ ج٣ ، ص ٩١ .
(٢) جامع السعادات/ ج٣ ، ص ٩٢ .
(٣) العنكبوت / ٦٩ .

الفصل الرابع

المعصية الجماعيـــة

والتوبة الجماعيـــة

تمهيـــد

يؤمن علم الإجتماع بأن الإنسان اجتماعي ومدني بالطبع ، وهـذا يعني الاعتراف المسبق بعدم قدرة الإنسان للقيام بجميع حاجاته وتوفير جميع متطلباته الضرورية في الحياة ، ما لم يعش في وسط إجتماعي يكفل له ذلك ويتعاون مع أفراده لتيسير شؤون حياته [1] .

ويؤكد علماء القانون والاجتماع من جهة أخرى على أنـه لا يمكن لأي مجتمع العيش في حياة آمنة عادلة مستقرة ما لم تحكمه قوانين صالحة وأنظمة واضحة ومحددة لدى أبنائه ، وعلى ضوء هذه القوانين والأنظمـــة تحفظ مصالح الجميع في المجتمع . فإذا تمرد أعضاء هذا المجتمـــع على أنظمتهـم المتعارفة وعلى القوانين التي تسودهم فسوف يكون انهيار مجتمعهم وتفكك عراه وسيادة الفوضى والظلم والفساد بين أوساطه نتيجة حتميـــة لهذا التمرد الجماعي العابث .

---

(١) الاسلام ومتطلبات التغيير الاجتماعي / ص ٢٧ بتصرف .

ان هذه الحقائق التي ينادي بها علماء الاجتماع والقانون اليوم ، لم تكن غريبة على الإسلام ولا جديـــدة على تفكيره الاجتماعي ، على الرغم من سابقية الإسلام في ولادته التاريخية مكتشفي هذه الحقائق بقرون عديدة.. نعم يفترق الاسلام عن علم القانون والاجتماع في أمرين رئيسيين [1] :

« الأول » في إيمانه بعدم قدرة الإنسان على تشريع الأنظمة والقوانين التي تحفظ مصالح الفرد والمجتمع ... فهو يرى ان هذه العملية التشريعية من صلاحيات الله وحده .

« الثاني » في فهمه للحياة وطريقـــة تفسيره للظواهر الحياتيـــة والاجتماعية المختلفة ، فهو لا يؤمن بانفصال ذلك كله عن القدرة الإلهية في تصريف الأمور المادية والاجتماعية والمعنوية للانسان .

كما تذهب إلى ذلك الفلسفة المادية والماركسيـة منهـا على الخصوص ، ولهذا فإن الإسلام حينما تحدث عن انهيار الأمم القديمة سياسياً أو اقتصادياً أو أخلاقياً ، أو انكسارها عسكرياً ، فإنـه اعتبر جميع ذلك حتميـــة للمعصية الجماعية ولتجاوز هذه المجتمعات البشرية والأمم والشعوب الضالة

---

(١) من غير المتصور اختـــلاف الاسلام عن هذين العلمين في أي مجال من مجالاتها ، وإنما جاء الاختلاف بسبب سيطرة الاتجاهات الحضارية المادية المعاصرة في توجيه حركة هذين العلمين ، الأمر الذي أبعدهما عن رسالتها العلمية في الحياة ، ولهذا فإننا نعتقد ان الاختلاف بين الاسلام وهذين العلمين كاتجـاهين حضاريين لا ينحصر بما ذكر فقط ، بل يشمل الكثير من التفاصيل .

للقوانين والقيم السماوية التي جاء بها الأنبياء عبر التاريخ .

قال الله سبحانه :

﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ، ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ [1] .

وهذا ما سوف نتعرف عليه بوضوح في الموضوعات الآتيـة من هذا الفصل الذي خصص لأجل الحديث عن المعصية الجماعية والتوبة الجماعية ، لأن الإسلام كما حذر أفراد الأمة من الوقوع في المعاصي الفردية شارحاً لهم أثرها في انحرافهم ودورها في تحطيم شخصيتهم فإنه كذلك تحدث عن أضرار المعصية الجماعية على الأمة محدداً الطرق التربوية والقضائيـة التي يجب على المسلمين الاعتماد عليها من أجل الوقوف بوجه مخاطر المعاصي الاجتماعية وعدم السماح لها بالانتشار في أوساط الأمة .

الفهم الاسلامي للمعصية الجماعية

المعصية الجماعية في نظر الاسلام هي : كل معصية تحدث ضرراً عاماً في المجتمع سواء صدرت من فرد ، أو جماعة ، ولتوضيح ذلك نقول :

ان وراء كل معصية تصدر من الإنسان سبب يدفعه لارتكابها ووراء هذا السبب هدف يصبو فاعل المعصيـة إلى تحقيقـه ، فكل معصية فردية يرتكبها الإنسان سراً تتصف بهذين البعدين « السبب » و « الهدف » فإذا

---

(١) يونس / ١٣ - ١٤ .

ارتكبها علانية اتصفت ببعد ثالث وهو « الأثر » أو « الموج » الاجتماعي الذي تخلفه في المحيط الذي تقع فيه ، وحينئذ تخرج عن كونها معصية فردية وتصبح في عداد المعاصي الجماعية ـ في نظر الاسلام ـ وإن كان فاعلها إنساناً واحداً ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول :

« ان المعصية إذا عمل بها العبد سرّاً لم يضر إلا عاملها ، فإذا عمل بها علانية ولم يغير عليه أضرت بالعامة »[1] .

فالموج الاجتماعي والأثر السيء الذي تسببه المعصية في الأمة هو المقياس الأساسي الذي يعتمده الإسلام للتمييز بين المعصية الجماعية والفردية، فكل معصية لا تتصف بهذه الصفة فهي معصية فردية حتى لو صدرت من جماعة خاصين ما دام قد ارتكبوها بالسر وتكتموا عليها ولم يحدث لها موج في المجتمع ، وبإمكاننا أن نستلهم هذا الفهم الإسلامي للمعصية الجماعية من حديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال فيه :

« ان الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة إذا عملت الخاصة بالمنكر سرّاً من غير أن تعلم العامة ، فإذا عملت الخاصة بالمنكر جهاراً فلم تغير ذلك العامة استوجب الفريقان العقوبة من الله عزّ وجل »[2] .

ومن الطبيعي أن يختلف الموج السلبي الذي تتركه المعاصي الاجتماعية في الأمة .. تبعاً لاختلاف نتائجها المدمرة وآثارها السيئة على النفس

---

(١) الوسائل / ج ١١ ، ص ٤٠٧ .

(٢) نفس المصدر .

والمجتمع ـ من معصية إلى أخرى ، ولكن مهما كان الموج السلبي محدوداً لا يخرج المعصية العامة عن كونها معصية اجتماعية ما دامت مرتكبة علانية، فلا يعتبر الإسلام معصية الفرد داخل أسرته علانية ـ مثلاً ـ معصيـــة فردية ، وإنما يعتبرها معصيـــة عامة ، لما لها من موج فاعل في السطح الاجتماعي للأمة ، وإن كان في حدود الوسط الأسروي الضيق ، فالأسرة ـ كما نعلم ـ هي الخليّة الأولى للمجتمع ، فلا بـــد ـ إذاً ـ أن تنتقل سلبيات هذه المعصية ـ التي مورست داخلها من غير تكتم عليها ـ إلى الأسر الأخرى ذات العلاقة الصميمية معها كالأقارب والأصدقاء والجيران.

وهذه النكتة هي في الواقع من جملة نكات الاختلاف بين الإسلام وبين علماء الاجتماع الذين لا يرون في مثل هذه الانحرافات الفردية السافرة بعـــداً اجتماعياً في الأمة نظراً لصدورها ـ حسب فهمهم ـ من فرد واحد وليس من طبقة اجتماعيـــة أو وسط اجتماعي معين في الأمة ، على العكس من الإسلام الذي يؤمن بمشاركة المجتمع للفرد في معصيته هذه ، لأنه كان شاهداً عليه حين اقترفها علانيـــة متحدياً جميع أفراده وقيمه وقوانينه ومقدساته ، ومن هذا المنطلق نددت النصوص الإسلاميـة بأفراد المجتمع الذين تمارس بحضورهم وفي مجالسهم معصية « إهانة المؤمن الفرد » من بعض الأشخاص المنحرفين في الأمة ، واعتبرت هذه النصوص الحاضرين في مثل هذه المجالس شركاء العاصي في آثامه وانحرافه ، إن لم يقوموا بمسؤوليتهم الشرعية تجاهه ، ويروى ان رسول الله ﷺ كان يقول :

« من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينتصر له فلم ينتصر ، أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق »[1] .

كما وردت بهذا المضمون روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام.

أضرار المعصية الجماعية

اتضح بأن المعصية الجماعية هي التي تترك ورائها تأثيرات سيئة على المجتمع ، إلا أن حجم الآثار السلبية في المعصية الاجتماعية ، مرتبط إلى حد كبير بنوعيتها ، وبما تنطوي عليه من مفاسد وأضرار عامة ، كما هو مرتبط باسلوب ممارستها بشكل مكشوف أمام المجتمع ، فالآثار السلبية للغيبة ـ وهي إحدى المعاصي الاجتماعية كذلك ـ ربما تكون أقل خطراً على حياة المجتمع من الأضرار والنتائج السيئة التي تسببها ظاهرة التبرج ، والمرأة المتبرجة على الطريقة العربية ربما تكون أقل فساداً وضرراً للمشاعر الجنسية عند الشباب الهائج التائه من الفتاة المتبرجة على الطريقة الأوربية .

فالمعصية الاجتماعية إذاً تختلف في تأثيراتها السيئة على النفس الانسانية وفي الأوساط الاجتماعية تبعاً لضخامة الموج الذي تخلقه في المحيط الذي تتواجد فيه ، وتبعاً لقوة فاعليتها في النفس والمجتمع .

والاسلام في تفسيره لسلبيات الانحراف الاجتماعي يخطو خطوة

---

(١) جامع السعادات/ ج٢ ، ص٢٩٨.

أعمق وأبعد من هذه النتائج السلبية الجزئية لآثار المعصية الاجتماعية ، فحينما يستعرض أطروحته الشاملة في تفسير المعاصي الاجتماعية وبيان أثرها على حركة المجتمعات التاريخية فإنه يؤمن بأن انهيار المجتمعات البشرية فكرياً وانحطاطها أخلاقياً وانكسارها سياسياً وعسكرياً ما هو ـ في الغالب ـ إلا لون من ألوان العقوبات الربانية التي تحل بهذه المجتمعات بسبب معاصيها العامة وطغيانها وكفرانها بأنعم الله تعالى .

وعلى ضوء هذه الأطروحة الشاملة في تفسير المعاصي الاجتماعية يؤمن الإسلام بأن أكثر الكوارث الطبيعية المدمرة كالزلازل والفيضانات والهزات الأرضية التي تحل بالأمم والشعوب الضالة ما هي إلا نتيجة حتمية لرفض هذه الأمم والشعوب لنور الوحي وصرخات الأنبياء .

ويمضي الإسلام يؤكد ـ من خلال هذه الأطروحة ـ على خطر المعاصي الاجتماعية على مبادىء الخير والفضيلة في الأمة ، ويقرر أخيراً حقيقة مرعبة حينما يقول : ان هذه المعاصي العامة هي أكبر خطر على وجود الأمة لأنها حينما تتفاقم وتستشري وتستحكم فيها فإنها حتماً ستعرض وجودها كله إما إلى الاستبدال أو الزوال .

وهذه النصوص القرآنية بين أيدينا وجهاً لوجه تقرر هذه الحقيقة بكل وضوح ، قال الله سبحانه :

﴿ ان لا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا

تضروه شيئا ﴾ [1] .

وقال :

﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ، وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا ﴾ [2] .

وقال :

﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾ [3] .

وقال :

﴿ كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ [4] .

وقال :

﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ [5] .

وقال :

﴿ ذلك بأن الله لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [6] .

والروايات التي نقلت عن أهل البيت (ع) حول أضرار المعصية الجماعية جاءت موضحة لمعاني القرآن ومفسرة آياته في المعصية العامة .

---

(١) التوبة / ٣٩ .
(٢) الاسراء / ١٦ – ١٧ .
(٣) الكهف / ٥٩ .
(٤) آل عمران / ١١ .
(٥) النحل / ٥٢ .
(٦) الأنفال / ٥٣ .

قال أمير المؤمنين عليه السلام :

« وأيم الله ما كان قوم في خفظ عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها، لأن الله ليس بظلام للعبيد »[1] .

وقال الإمام الصادق عليه السلام :

« ما أقرّ قوم بالمنكر بين أظهرهم لا يغيرونه إلا أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده »[2] .

وقال عليه السلام في حديث آخر :

« ان الله عزّ وجل بعث نبياً من أنبيائه إلى قومه أوحى اليه : أن قل لقومك : انه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره ، إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون وليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب إلا تحولت عما يكرهون إلى ما يحبون »[3] .

وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام :

« كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون أحدث الله لهم

---

(١) اصول الكافي ، ج ٢ ، ص ٦١ .

(٢) الوسائل / ج ١١ ، ص ٤٠٨ .

(٣) اصول الكافي، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

من البلاء ما لم يكونوا يعرفون »[1] .

ويظهر من هذه النصوص ان الاسلام قد أعطى ـ في تفسيره للأضرار التي تسببها المعصية الاجتماعية قانوناً ثابتاً وبعداً إلهياً شاملاً يتحكم في كل المسيرة الانسانية ، وبهذا التفسير الرباني للمعصية الجماعية تعلن الأطروحة الإسلامية عن اختلافها في تفسير الظواهر الاجتماعية وحركة التاريخ الحضاري للانسان عن النظريات الفلسفية المادية وخاصة تلك التي تعلل التحول الاجتماعي بكل تقلباته الايجابية والسلبية عبر التاريخ البشري ـ بالصراع الطبقي وتطور وسائل الانتاج !!

ونحن لو افترضنا صدق هذا التفسير المادي للتاريخ على الظواهر الاجتماعية في حياة الشعوب ، فكيف يمكن أن نتصور صحته بالنسبة للكوارث الطبيعية التي تحل بالأمم والشعوب بسبب إعراضها عن منهج السماء ، وتنكرها لهدي الأنبياء ونتيجة لسلوكها في خط الضلال ، كما حدثنا القرآن الكريم عن أمم وشعوب غابرة سادت ثم بادت بسبب رفضها لنور السماء ودعوات الأنبياء .

والعقاب الالهي الذي أشارت اليه الآيات والروايات السابقة هو لون من ألوان النتائج السلبية التي تسببها المعصية الجماعية في الأمة، وقد يكون هو آخر النتائج السلبية التي تسببها هذه المعصية العامة في الأمة .

---

(١) اصول الكافي، ج ٢ ، ص ٢٧٥ .

وهذا العقاب الرباني حينما يحل بالأمة ـ بسبب انحرافهـــا وفسادها وطغيانها لا يختص بالظالمين من هذه الأمة وحدهم ، بل يعم أبناء المجتمع قاطبة على اختلاف انتماءاتهم العقائدية وهوياتهم السياسيةومراكزهمالعلمية والاجتماعية ، وعلى اختلاف خصائصهم النفسية والسلوكية « فحينما حل التيه ببني إسرائيل نتيجة ما كسب هذا الشعب بظلمه وطغيانه وتمرده فلم يختص هذا العقاب الالهي بخصوص الظالمين من بني إسرائيل ، وإنما شمل حتى موسى عليه السلام شمل أطهر الناس وأزكى الناس وأشجع النـــاس في مواجهة الظلمة والطواغيت ، نعم شمل موسى عليه السلام لأنه جزء من تلـك الأمة ، وقد حلَّ الهلاك بها فتاهوا أربعين سنة،وكانني الله موسى عليه السلام معهم في هذا التيه »[1] .

وحينما حلّت الانتكاسة العسكرية بجيش المسلمين في معركة أحد لم تختص نتائجها السيئة بأولئك الذين كانوا يرابطون فوق الجبل وتركوا حماية إخوانهم ـ وهم في قلب المعركة ـ ونزلوا متهالكين على الغنائم بل شملت النتائج السلبية لهذه المعصية حتى رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كسرت رباعيته وجرح وسقط في ميدان القتال ، حتى ظن بعض الصحابة أنه قد مات فولى هارباً من ساحة المعركة ، وكذلك شملت سلبيات هذه المعركة أتقى الصحابة الذين يقاتلون جنباً إلى جنب مع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أعادوا الغلبة للمسلمين .

---

(١) السنن التاريخية في القرآن الكريم ، ص ٦٠ .

وعندما اغتصب الحاكم المفروض يزيد بن معاوية موقع القيادة من أصحابه الشرعيين في الأمة فإن العقاب الالهي الذي نزل بالمسلمين نتيجة سكوتهم على هذا الاغتصاب وعلى منكرات هذا الطاغوت الخليع الخمار ، وبسبب استسلامهم للهوه وعبثه وطغيانه لم يختص بأولئك الساكتين عن انحرافه وباطله ، ولم يختص بالظالمين من أعوانه ولا بالمتخاذلين من أبناء المجتمع الاسلامي آنذاك، بل شمل أطهر أبناء الأمة وأفضلهم علماً وتقوى وحكماً ، شمل الامام الحسين كما شمل كوكبة من خيرة أبناء ذلك العصر ، من حفاظ القرآن وحملة السنة !!

وكذلك في حياتنا المعاصرة ، حينما نزل البلاء بالمجتمع العراقي نتيجة تخاذل أبنائه عن نصرة الدين والعلماء العاملين والمجاهدين ، وبسبب تثاقل أهل العراق عن مواجهة تعسف العفالقة الصليبيين وظلمهم الذي تجسد في القضاء على القيم والشعارات الدينية ومحاولة إلغاء دورها الاسلامي الفاعل في تربية المسلمين كما تجسد في انتهاك الأعراض والاعتداء على كرامات الناس ... فإن البلاء لم يحل بالمتخاذلين والمتعاونين مع السلطة البعثية الكافرة فحسب ، وإنما شمل كذلك أطهر أبناء العراق وأبرز قياداته وأكثرها تقوى وعلماً وجهاداً ، وفي ظليعتهم رجل الفقه والفكر والجهاد والتقوى المرجع العظيم السيد محمد باقر الصدر .

انه بلاء إلهي عام يكشف عن غضبة إلهية عارمة على مجتمع اختار طريق المهادنة مع الطواغيت ، أو سار في خط المساندة للسلطة الظالمة التي أغضبت الله في حكمها وظلمها ... وهذا البلاء قانون رباني تتعامل به

دائماً إرادة السماء مع إرادة أهل الأرض ، حيث لا تطابق بين الارادتين، أو عندما تنحرف وتزيغ إرادة أهل الأرض عن طريق الرسول المنذر بهذا البلاء ، وهذا القانون ثابت لا استثناء فيه [1] فإذا نزل شمل أطهر أبناء الأمة كذلك ، وهو نتيجة حتمية لتخاذل وتثاقل أي مجتمع عن نصرة الدين وسكوته عن المنكرات الاجتماعية التي تمارس بشكل مكشوف ومفضوح بين أبنائه ، قال الله سبحانه :

﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب ﴾ [2] .

والعقاب الإلهي هذا والذي يحل بالأمة كنتيجة حتمية لاستسلامها للظلم والطاغوت أو بسبب انحرافها وارتكابها لما حرم الله عليها يمكن تقسيمه إلى نوعين :

الأول : عقاب إلهي غير مباشر ـ إن صحّ هذا التعبير ـ وهو يكون على أشكال وصور مختلفة ، فتارة على شكل عقاب سياسي من قبل الحاكم الظالم والسلطة الدكتاتورية الفاسدة التي تتحكم بالمجتمع ، وأشار القرآن إلى هذا اللون من العقاب الإلهي بقوله :

﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ، وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب

---

(١) الا قوم يونس عليه السلام فقد دفع الله سبحانه عنهم عذابه لتوبتهم اليه .
(٢) الأنفال / ٢٥ .

عباده خبيراً بصيرا ﴾ [1] .

وتارة يحل هذا العقاب الإلهي في الأمة على شكل غلاء إقتصادي بسبب تلاعب المترفين والرأسماليين بمقدرات المجتمع الاقتصادية ومراكزه وأسواقه التجارية ، وكذلك يحل على شكل ظلم وجور وتعسف في الحياة السياسية يعاني منه أبناء المجتمع شتى الويلات بسبب تسلط الطواغيت والمتجبرين بالحكم عليهم مما يفقدهم الأمن والسلامة على حياتهم ويصبح المجتمع قاطبة يعيش دائماً في حالة خوف وهلع من حكامه ، كما أشار القرآن إلى ذلك بقوله :

﴿ وضرب الله لنا مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ [2] .

وقد يحل هذا الخوف والجوع الذي أشارت اليه الآية بسبب الفتن والحروب والاقتتال الداخلي الدائم في هذا المجتمع الذي كفر بأنعم الله فاذاقه الله ذلك جزاء كفره وطغيانه .

ومرة يكون هذا العقاب الإلهي ـ غير المباشر ـ في صورة ضياع في صحراء جرداء وعلى شكل تيه مجتمع وشعب بكامله سنين طويلة في أرض قاحلة نتيجة تخاذله عن نصرة الحق وعدم استجابته لارادة قياداته الحكيمة

---

(١) الاسراء ، ١٦ ـ ١٧ .

(٢) النحل ، ١١٢ .

العادلة المسددة من قبل السماء ، كما حصل لشعب بني إسرائيل الذين تاهوا في صحراء سيناء أربعين سنة ، وكانت تلك القيادات الإلهية معهم في ذلك التيه الشاق .

الثاني : عقاب إلهي مباشر يجسد غضب الله تعالى وسخطـــه فيحل بالشعوب والأمم التي أعرضت عن نور هدايته ، وذلك عن طريق حلول الزلازل فيهم ، أو مسخهم قردة وخنازير ، أو اكتساح مدنهم بالفيضانات والطوفان ، أو بصورة هزّات أرضية تبتلع قراهم ومدنهم وتمسح معالمها من الوجود ، أو على شكل براكين نارية تندلع من تحت أقدامهم فتحرقهم جميعاً ، أو كوارث طبيعية وكونية أخرى كالرياح العاتية ، وغيرها كما حدث لأقوام وشعوب مختلفة في الماضي البعيد من تاريخ البشرية كقوم لوط وعاد وثمود وكقوم نوح وغيرهم ، ولنترك المجال للقرآن يحدثنا عن هذا اللون من العقاب الإلهي المباشر الذي كان ينزله الله سبحانـــه بالأمم والشعوب الظالمة التي كانت تواجه دعوات الأنبياء بالرفض والمحاربـــة والاستكبار ، فلننصت خاشعين إلى هذه الآيات التي تحدثنا عن ذلك :

﴿ ... كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، فاما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ (١) .

﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرون مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم

---

(١) الحاقة ، ٤ ـ ٧ .

وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار من تحتهم ، فاهلكناهم بذنوبهم وانشانا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ [1] .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الأخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، فكذبوه فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ [2] .

﴿ وكاين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديداً وعذبناها عذابا نكرا ... ﴾ [3] .

ونلمح في الآية الأخيرة صورة العذاب الالهي المباشر الذي يحل بالأمم والشعوب التي ترفض هدي السماء وكلمات الأنبياء ... نعم نلمحه في صيغة قانون رباني ثابت تتعامل على ضوئه إرادة الله مع إرادة الانسان حينما يطغى وينحرف ويكفر ويعيث في الأرض فساداً .

علاج المعصية الجماعية

يتضح من البحث السابق بأن المعصية الجماعية تتميز عن المعصية الفردية في شمول سلبياتها لقطاع كبير من أبناء المجتمع ، وهذا الفارق بينها وبين المعصية الفردية هو الذي جعل الشارع الاسلامي يهتم في مكافحتها ومواجهتها بشتى الأساليب والوسائل التربوية والقضائية من أجل تطويقها والقضاء على أضرارها ولو باعنف الأساليب ، فبالوقت الذي نهت الشريعة الاسلامية عن متابعة وملاحقة الأفراد الذين يحتمل أنهم يرتكبون

---

(١) الأنعام ، ٦ .
(٢) العنكبوت ، ٣٦ . (٣) الطلاق، ٨ .

المحرمات سرّاً ، ولم تسمح بفضحهم وكشفهم لأنها اعتبرت ذلك من جملة أساليب إشاعة الفساد في المجتمع الاسلامي ، فإنها قامت على العكس من ذلك فيما يخص محاربة المنكرات والجرائم التي لها بعد اجتماعي في الأمة ، فأمرت بمواجهة هذه المنكرات والمفاسد العامة وكشفها للجميع حتى لو حاول أصحابها التكتم عليها ، وكان الهدف منها الاطاحة بالنظام الاسلامي أو تهديد أمن المجتمع الاسلامي والنيل من سلامته واستقراره ، فيجب على المسلمين جميعاً وعلى السلطة الاسلامية فضح مثل هذه المنكرات ومحاربتها بأعنف الاساليب ولو بالمواجهة المسلحة إذا اقتضى الامر ذلك.

وقد وضع الاسلام خطة تربوية شاملة لتطويق المعصية الجماعية ، والتقليل من آثارها ونتائجها السلبية على المجتمع إن لم يجتث جذورها السيئة نهائياً .

وللاختصار سوف نتحدث ـ هنا ـ عن أبرز أسلوبين تربويين اعتمدهما الاسلام على الصعيد الاجتماعي لمواجهة خطر وأضرار المعصية الجماعية .

الأسلوب الأول :

وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، على جميع المسلمين بصورة عامة على نحو الكفاية « وخلاصة هذا الواجب : هو ان الله سبحانه ألزم المسلمين كافة بملاحقة عملية الانحراف الاجتماعي ، سواء منه

الانحراف الديني في شؤون التمرد الفردى على الله في عباداته ومعاملاته، أو الانحراف الاجتماعي في السلوك الجماعي الذي يبتعد عن خط الرسالة، أو الانحراف السياسي المتمثل في الطغيان السياسي ضد الضعفاء والمضطهدين .. أو الانحراف الاقتصادي الذي يقوم على أساس الاحتكار والاستغلال والغش والربا وأكل أموال الناس بالباطل وغيرها .

وفي الجانب الآخر من هذا الواجب أراد الله من المسلمين أن يساندوا الاوضاع السليمة المستقيمة في المجتمع ، تلك التي تلتقي مع مبادىء الخير والفضيلة وقيم السماء في أي شان من شؤون الحياة وبذلك يخلق الاسلام في قلب المجتمع المطيع رقابة ذاتية لا تخضع لتكليف رسمي ولا لوظيفة تقليدية ، بل تخضع للشعور الايماني بضرورة حماية العقيدة والرسالة الالهية من التشويه والتلاعب وحماية المسلمين من ألوان الانحراف »[1] .

وأولى الاسلام هذه الفريضة المقدسة عناية خاصة لما لها من أهمية قصوى في تحصين التجربة الاسلامية من تشويه المنافقين للحكم الاسلامي وتلاعب المصلحيين في إدارة الدولة وسياسة البلاد ، كما ان لهذه الفريضة دوراً كبيراً في تحصين المجتمع الاسلامي من ألوان الانحراف الاجتماعي، ولهذا اعتبرها الاسلام أهم الفرائض الأجتماعية في أحكامه وواجباته على

---

(١) الاسلام ومنطق القوة ، ٥٧ ـ ٥٨ باختصار .

المسلمين ولذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول :

« ... وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الامر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجّي »[1] .

وقال قائد المستضعفين الإمام الخميني في وصف هذه الفريضة :

« وهما - يقصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - من أسمى الفرائض وأشرفها وبهما تقام الفرائض ووجوبها من ضرورات الدين ، ومنكره مع الالتفات بلازمه من الكافرين »[2] .

وورد الحث في القرآن الكريم وعلى لسان النبي صلى الله عليه وآله العظيم كثيراً على ضرورة الالتزام بهذه الفريضة وعلى أهمية إقامتها في المجتمعات الاسلامية من أجل استمرارية تطبيق أحكام الاسلام وسيادته في الحياة ، ومن أجل استقامة المسلمين في خط الدين وتعبيدهم لرب العالمين ، فقال الله سبحانه :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[3] .

وقال سبحانه :

---

(١) نهج البلاغة ، ص ٥٤٢ .

(٢) تحرير الوسيلة ، ج ١ ، ص ٤٦٢ .

(٣) آل عمران ، ١٠٤ .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

وقال ﷺ في حديث آخر :

« ان الله يبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له !! فقيل : وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له ، فقال : الذي لا ينهى عن المنكر » [1] .

ان الحكمة من وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع المسلمين هو تطويق المعاصي والمفاسد والمنكرات ذات البعد الاجتماعي بهدف القضاء على أضرارها ومساوئها ، وإنقاذ المجتمع الاسلامي من نتائجها وأضرارها العامة الوخيمة من غير فرق بين المعصية الكبيرة أو الصغيرة منها كما يقول الإمام الخميني حفظه الله [2] .

وإذا احتاج النهي عن المنكر إلى اجتماع مجموعة من المسلمين ـ من

---

(١) وسائل الشيعة ، ج ٦ ، ص ٣٩٧ .

(٢) تحرير الوسيلة ، ج ١ ، ص٤٦٥ ، مسألة ١٤ .

أجل القضاء عليـــه ـ واشتراكهم في موقف واحد ضد فاعله يصبح من الواجب الشرعي على المسلمين تشكيل هذه المجموعة من ذوي الكفـــاءة وتزويدها بالامكانيات المناسبة لمواجهة هذا المفسد والأخذ على يده ، كما أفتى بذلك الإمام الخميني حفظه الله ، حيث قال :

« لو توقف إقامة فريضة أو إقلاع منكر على اجتماع عدة في الأمر أو النهي لا يسقط الوجوب بقيام بعضهم ، ويجب الاجتماع في ذلـــك بقدر الكفاءة »[٢] .

وهذه الفتوى تعكس لنا عن مدى اهتمام الاسلام في تطويق الانحرافات الاجتماعية والقضاء عليها . كما تكشف لنا عن حكمة الاسلام ودقة تخطيطه وتنظيمه الاجتماعي في محاربة المنكرات ذات الأبعاد العامة بما لها من أثر سلبي كبير يهدد حياة المجتمع الاسلامي بالانحراف ، ومن هذه الفتوى يفهم بأن الاسلام يعتبر حجم النهي عن المنكر الاجتماعي ينبغي أن يكون مساوياً وحجم الموج السلبي الفـــاعل في الأمة لهذا المنكر الاجتماعي ، ومتناسباً تناسباً طردياً مع مساحة الأثر السيء الذي يسببه هذا المنكر على السطح الاجتماعي للأمة .

ولهذا السبب ذاتـــه ميز الاسلام بين درجات الأجر والثواب التي

---

(١) تحرير الوسيلة ، ج١ ، ص ٤٦٤ .

يمنحها الله سبحانه ـ يوم القيامة ـ للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فاعطى من ينهى عن منكر اجتماعي ذا تأثير سلبي واسع في الأمة أجراً عظيماً وثواباً كبيراً يتناسب مع حجم الموج السلبي الذي يتركه هـذا المنكر على السطح الاجتماعي في الأمة، إن لم يزد عليه.

فالسلطان الجـائر ـ مثلاً ـ وإن كان فرداً واحداً في الأمة ولكن معصيته الاجتماعية ذات تأثير سلبي كبير على الأمة، ربما يصل في بعض الأحيان ـ ضرر معصيته هذه ـ إلى جميع أبناء المجتمع حتى أقاربه وأهل بيته، فهو يهدد وجود أمته كلها بالدمار والبوار وخاصة حينما يتحكم بقيمها ومقدساتها وكرامتها واقتصادها بأساليب سياسية ظالمة وبقوانين جائرة متعسفة، لذلك اعتبر الاسلام مقاومة مثل هذا الطاغية المتجبر من أعظم الأعمال الصالحة التي تقرب فاعلها إلى الله سبحانه، وان قائد هذه المقاومة التي تنهي عن منكر اجتماعي واسع النطاق سوف ينال من الله يوم القيامة أعظم الدرجات، كما روي ذلك عن الإمام الباقر عليه السلام حينما قال:

« من مشى إلى سلطان جائر فأمره بتقوى الله ووعظه وخوّفه، كان له مثل أجر الثقلين، الجن والانس ومثل أعمالهم »[1].

---

(١) الوسائل، ج ١١، ص ٤٠٦.

الاسلوب الثاني :

في محاربة المنكرات والجرائم الاجتماعية معاقبة المرتكبين لهذه المعاصي الاجتماعية علانية أمام المجتمع الذي مورست الجريمة أو المعصية الاجتماعية في وسطه، وذلك عن طريق إقامة العقوبات القضائية كالحدود والتعزيرات والقصاص بمشاهدة أفراد المجتمع الذي ينتمي اليهم مرتكب الجريمة الاجتماعية ، وهذه الطريقة من العقاب سوف تردع المتأثرين بأجواء هذه الجريمة التي عوقب بسببها هذا الجاني أو العاصي ، وهذا الاسلوب التربوي هو أبلغ أسلوب في ردع الآخرين عن هذه المعصية ، فلا تتركهم يفكرون في الإقدام عليها خوفاً من السقوط الاجتماعي الذي سيلاقونه من القضاء الاسلامي العادل أمام الجماهير التي تعرفهم .

إلا ان الشريعة الاسلامية لم تأمر بمعاقبة جميع مرتكبي المعاصي الاجتماعية بهذه الطريقة المكشوفة للمجتمع ، بل اقتصرت في هذا اللون من العقاب القضائي على مرتكبي كبائر الجرائم الاجتماعية ذات الآثار الاجتماعية الوخيمة والخطرة جداً على الأمة ، وفي ذلك حكمة خاصة تظهر أبعادها في أطروحة الإسلام المتكاملة في تربية المجتمع الاسلامي وإبعاده عن أجواء الفساد والشهوات الساقطة ، ولا مجال ـ هنا ـ للحديث عن ذلك لأنه يخرج بنا عن صلب الموضوع .

والتوبة الجماعية هي من جملة أساليب الاسلام في علاج المعصية الجماعية ، فحينما يصبح الطغيان والفساد والانحراف عن القيم الإلهية وعن مبادىء الحق والعدالة هي الظاهرة المستشرية في حياة الأمة أو المجتمع ، فحينئذ تصبح هذه التوبة واجبة على جميع أفراد تلك الامة أو ذلك المجتمع ، بما فيهم من الصالحين والاخيار .

وتختلف التوبة الجماعية عن التوبة الفردية بوجوب إعلانها أمام الوسط الاجتماعي الذي مورست فيه المعصية ، بعكس التوبة الفردية ، فإنه لا يشترط فيها ذلك بل وردت أخبار مستفيضة عن المعصومين (ع) تحث أصحاب الذنوب الفردية على التستر بالمعاصي والتوبة منها سرّاً .

ومن النصوص التي حاول بعض الفقهاء أن يستفيدوا منها وجوب التظاهر بالتوبة الجماعية في المحيط الاجتماعي الذي ارتكبت فيه ، هذه الآية المباركة :

﴿ ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ [1] .

---

(١) البقرة ، ١٦٠ .

فهذه الآية تتكلم عن معصية جماعية يكتمون ما أنزل الله سبحانه على رسله من البينات والهدى ، ولا يطلعون الناس على ذلك لأغراض خبيثة في نفوسهم ، فهم يضلون الناس عن هدى الله الذي أرسله لعباده بواسطة أنبيائه . وهذه الآية عامة لا تختص بالاحبار أو الرهبان من أهل الكتاب دون غيرهم كما توهّم بعض المفسرين ، نعم لقد كان أهل الكتاب يفعلون ذلك ولا زالوا كذلك فهم يعرفون مما بين أيديهم من الكتاب مدى ما في عقيدة الاسلام ودين محمد ﷺ من صدق ، ومع ذلك يكتمون هذا الذي بيّنه الله لهم من الكتاب ، فهم ومن فعل مثلهم من المسلمين وقادة العالم الاسلامي في أي زمن كانوا إن كتموا آيات الله وهداه الذي أرسله للناس جميعاً ، وإذا أخفوا ذلك لسبب من أسباب الاخفاء الكثيرة الخبيثة سوف تصب عليهم لعنة الله وما أكبرها من لعنة !! ثم تتبعها لعنة اللاعنين ، لان معصيتهم هذه تسبب أكبر ضرر عام لعباد الله ، فلا بد إذاً أن تلحق لعنة الله سبحانه لهم لعنة كل من حرم من هدي الله ونور رسله بسبب هذا الاخفاء ، ويستثنى من هذا اللعن الخالد أولئك الذين تابوا من هذه المعصية الرهيبة ، وكفوا أيديهم عن إضلال الناس فهؤلاء يفتح الله سبحانه لهم نافذة التوبة المضيئة بنور الرجاء والمغفرة وتكون توبتهم مشروطة القبول بإظهار حالهم السابق للناس وانهم كانوا يعملون بالضلال والاضلال ، ثم يظهروا ما كتموه من البينات والهدى ليطّلع عليه الناس ويقتبسوا من نوره الوضّاء ما ينير لهم الدرب بعدما كانوا يغرقون في ظلام دامس .

فإذا فعلوا ذلك قبل الله سبحانه توبتهم وليتوجهوا بعـــد ذلك لاصلاح أنفسهم من فساد معصيتهم العظيمة هذه ليكونوا في عداد الصالحين ...

وهكذا فسّر الآية السيد الطباطبائي في ميزانه ، فقال :

« والمراد بتقييد توبتهم بالتبيين أن يتبين أمرهم ويتظاهروا بالتوبة ، ولازم ذلك أن يبينوا ما كتموه للناس ، وانهم كانوا كاتمين وإلا فـــلم يتوبوا بعد »[1] .

وقال صاحب المسالك الشيخ الكاظمي ، وهو بصدد تفسير الآية :

« وبينوا أي أظهروا التوبه ليعلم انهم تائبون ويعلم الناس ان مافعلوه كان قبيحاً ، ومن ثم قيل : من ارتكب المعصيه سرّاً كفاه التوبة سرّاً ، ومن أظهر المعصية يجب أن يظهر التوبة ... أو المراد ببينوا، التوبـــة باخلاص العمل ... »[2] .

ويظهر من كلام الشيخ الكاظمي انه كان متردداً في فهمه لكلمة «بينوا» فنراه تارة يقول « بينوا » أظهروا التوبة ليعلم انهم تائبون .. ونراه تارة أخرى يقول « أو المراد ببينوا التوبة باخلاص العمـل .. » لذلك نجده

---

(١) الميزان ، ج ١ ، ص ٣٩٠ .

(٢) مسالك الافهام ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ .

غير مصرّ على الحكم بوجوب التظاهر بالتوبة لمن أظهر المعصية ، ومن هذا المنطلق نسب هذا الحكم إلى « القيل » وهو أسلوب يعتمده الفقهاء لعرض الرأي الضعيف ، وكلا الايضاحين اللذين قدمهما حول كلمة « بينوا » غير واضحين ولا هما ينسجمان مع سياق الآية .

أما قوله الأول « بينوا أي أظهروا التوبة ليعلم انهم تائبون .. » فهو مرفوض ، لأن « بينوا » بمعنى أظهروا ، والاظهار هنا غير « التوبة » ، وإنما شيء آخر ، وهو « أن يظهروا للناس ما كتموه من البينات والهدى » والتوبة سابقة عليه ، فبعد توبتهم فيما بينهم وبين الله سبحانه يظهرون ما كانوا يكتمون من البينات والهدى كما يدل على ذلك سياق الآية « إلاالذين تابوا وأصلحوا وبينوا .. » ويلازم إظهار ما كتموه إظهار توبتهم للناس ، ويعني ذلك ان لهؤلاء توبتين ، الأولى فيما بينهم وبين أنفسهم ، والثانية أمام الناس عندما يظهروا لهم ما كانوا يكتمون من البينات والهدى ، والتوبة الأولى هي الدافع والمحرك للتوبة الثانية [1] .

أما قوله الثاني « أو المراد ببينوا التوبة باخلاص العمل .. » فهو غير مستقيم المعنى ، إلا إذا حاولنا فهمه بما ينسجم مع كلام السيد الطباطبائي

---

(١) التوبة الاولى لم يصرح بها السيد الطباطبائي ولا غيره ، وهو اشتباه فيما أتصور .

ولكن بعد أن ندخل في أبواب التأويل والتعديل فيه .

فالآية واضحة كما فسرها السيد الطباطبائي ، نعم إذا كان هناك مجال للتردد في فهم هذه الآية فإنه ينحصر في إمكانية انتزاع حكم عام منها بوجوب التظاهر بالتوبة لكل معصية ظاهرية [1] ، وهو ما اصطلحنا عليه « بالمعصية الجماعية » .

ولكن هذا لا داعي له ، لأن أصل وجوب التوبة على المذنبين أمر إرشادي وليس مولوياً ، أي العقل الذي يستقل في إدراك هذا الوجوب ، فإذا وردت نصوص شرعية تدل على وجوبها فإن هذه النصوص تكون مؤكدة لصحة ما أدركه العقل ، والتظاهر بالتوبة لمن تظاهر بالمعصية كذلك حكم إرشادي .. ونحن بامكاننا أن نكتشف حكماً عاماً يدل على وجوب التظاهر بالتوبة لمن ارتكب المعصية علانية عن طريقين :

الأول : من خلال استقراء الأحكام الشرعية التي بينها الاسلام للتائبين من ذنوبهم التي اقترفوها علانية .

الثاني : من خلال استعراض سيرة المتشرعة من أهل التوحيد [2]

---

(١) يصطلح الفقهاء على المعصية الاجتماعية (بالمعصية الظاهرية) .

(٢) قلنا من أهل التوحيد لأننا سوف نتكلم عن أساليب التوبة في المعصية=

وكيف كانوا يتوبون من ذنوبهم الاجتماعية .

الطريق الأول

الذي نستفيد منه حكماً عاماً يدل على وجوب التظاهر بالتوبة لكل من كان متجاهراً بالمعصية من خلال استقراء الأحكام الشرعية التي حددت أسلوب التوبة للتائبين من ذنوبهم التي ارتكبوها علانيـــة ، فإننا سوف نكتشف عموم هذا الوجوب من خلال هذه الأحكام الشرعيـة ، وهي في الشريعة الاسلامية كثيرة جداً لا يمكن استعراضها كلها هنا ، لأنها تخرج بنا عن صلب الموضوع ولذلك سوف نذكر قسماً منها على سبيل المثال ، وهي : « القاذف » وهو كل من رمى مسلماً « بالزنا » أو « اللواط » بدون أن يقدم بينة شرعية على ذلك ، فهو ساقط العدالة ولا تقبل شهادته بـين المسلمين [1] (إلا إذا تاب ، وتوبته أن يكذب نفسه عند من قذفعنـــده

=الاجتماعية في المجتمعات الدينية الموحدة التي سبقت الاسلام كتوبة قوم يونس عليه السلام وتوبة قوم موسى عليه السلام ولكن الكلام حول هذه المجتمعات لا يدخل في دليـل سيرة المتشرعة وإنما يشمل هذا الدليل كل توبة اجتماعية وقعت في عصر الرسالة الاسلامية فحسب .

(١) مع عدم اللعان أو البينة أو إقرار المقذوف بصحة ما قذف به ،راجع تحرير الوسيلة ، ج ٢ ، ص ٤٤٢ .

أو عند جمع من المسلمين أو عندهما .. فإذا كذّب نفسه وتاب تقبل شهادته إذا صلح)[1] .

و « من اتهم مسلماً بدينه ، ونسبه إلى الكفر أو الفسق في مجلس عام وتوبته تكذيب نفسه أمام من سمع منه ذلك » ونظير ذلك توبة المغتاب ، فعليه إضافة إلى ذلك إن كان في كلامه اتهام لدين لمسلم أن يذهب إلى من اغتابه ويستوهبه ويطلب منه المغفرة ، وكذلك توبة من استلم منصباً قضائياً بين المسلمين من غير استحقاق وأخذ يحكم بين الناس بالباطل » فعليه لكي يتوب من معصيته هذه أن يتنحى عن كرسي القضاء ويعلن توبته للناس ويبين لهم مواطن الخطأ في حكمه حتى يرجع المتخاصمون الذين حكم لهم بالباطل إلى قاض آخر عادل ليحكم بينهم بالحق فيما كانوا يختلفون ، وكذلك مثله من كان يفتي بغير علم ليضل عن سبيل الله فيجب أن يعلن توبته ، ويعلم من أفتاهم بالباطل بعدم صحة فتواه ، ونظير القاضي والمفتي كذباً من كتم آيات الله سبحانه كما بيّنت ذلك الآية الكريمة السابقة ، وكذلك توبة « القاتل » و « السارق » فيجب على الأول تسليم نفسه لأهل المقتول ، ويجب على الثاني إعلان توبته بارجاع ما سرقه إلى أصحابه .. وغير ذلك .

وربّ قائل يقول : ان جريمة القتل أو السرقة حينما ترتكب بالسر

---

(١) تحرير الوسيلة ، ج٢، ص ٤٠٢ .

فهي من المعاصي الفردية وليست من المعاصي الجماعيـة أو الظاهريـة في المجتمع ، فليس من الصحيح وضعها في قائمة الجرائم الاجتماعية !

وهذا الكلام ليس صحيحاً ، لأن هاتين الجريمتين من الجرائم التي لها أبعاد اجتماعية في الأمة ، لانها ذات أضرار عامة في الحياة وآثارها تظهر ، وموجها يتفاعل في المحيط الاجتماعي الذي تمارس فيه حتى لو تستر فاعلها وراء الظـــلام ، وخلف الاسوار والاشجار ، فهي إذاً من المعـــاصي الاجتماعية وإن ارتكبت سرّاً .

وينبغي هنا أن ننبه إلى أن الفقهاء عامة اتفقوا على ان التوبـــة من بعض هذه المعاصي الاجتماعية لا يجب أن تكون ظاهرية إذا خيف من وقوع ضرر كبير بسبب كشف المذنب التائب عن هويته ، ولا أتصوران هذا الحكم يشمل من كان يكتم آيات الله ويشتري بها ثمناً قليـــلاً أو يتستر عليها ابتغاء الفتنة ، فمثل هذا المجرم التـــائب لا يجوز له أن يبقى كاتماً لهدى الله وبيناته مهما كان خوف الضرر كبيراً .. أما هل يشمل هذا الحكم من كان يقضي بالباطل أو يفتي بغير علم أو غير ذلك من المعـــاصي التي ضررها يشكل خطراً كبيراً على مهمة الدين الإلهي في الحياة ؟

فهذا ما ينبغي على الفقهاء أن يحققوا فيه ويقولوا كلمتهم حوله .

والطريق الثاني الذي نستفيد منه عموم الحكم بوجوب التظاهر بالتوبة من المعصية الظاهرية أو الاجتماعية ، وهو دراسة الواقع التطبيقي لهـذا اللون من التوبة عبر تاريخ مجتمعات التوحيد ، وهو ما يسمى في اصطلاح الفقهاء « بدليل سيرة المتشرعة » فإن جميع التطبيقـــات التي مورست للتوبة من المعصية الجماعية في مجتمعات التوحيد دلّت على ان هذا اللون من التوبة لم يكن ليمارس بالخفاء أبداً وفي الواقع ان ممارستها بالخفاء لايحقق أهدافها التربوية التي تتوخى رسالات السماء تحقيقها في المجتمع عنـــدما تعلن في الوسط الذي ارتكبت فيه سواء كان هذا الوسط الاجتماعي محدوداً أو واسعاً ، وإذا وجد من يمارس هذه التوبة بالخفاء فإن ذلك لنص شرعي يبرر له ذلك كما أوضحنا ذلك في « الطريق الاول » .

ونحن ما إذا وقفنا على هذه التطبيقات التاريخية فإننـا سوف نجدها تنقسم إلى نوعين :

١ ـ تطبيقات فردية لتوبة من معصية جماعيـــة ، وهذا النوع من التطبيقات يمثل صوراً مختلفة لتوبات متعددة معلنـة في المجتمع من قبل أفراد متعددين كانوا قد ارتكبوا معاص وانحرافات ذات أبعاد اجتماعيـة مختلفة في مجتمعاتهم ، وهذا النوع من التطبيقات لا نريد أن نطيل الكلام حوله لانه في واقعـه ما هو إلا تطبيق عملي عن الجـانب النظري للأحكام

الشرعية التي عرضنا بعضها في « الطريق الاول » ، ويدخل في هذا القسم من هذه التطبيقات توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في معركة « تبوك » وتوبة الخليفة الثالث مرّات عديدة [1] أمام الجماهير الثائرة عليه بسبب تفضيله أبناء عشيرته الامويين على سائر المسلمين ، وعدم التزامه بسيرة النبي ﷺ وسياسته في الإدارة والحكم ، وبسبب التزامه بسياسة مروان القبلية التي ثار ضدها المسلمون .

ويدخل في هذا القسم كذلك توبة بعض الخوارج بعد أن تمردوا على حكم أمير المؤمنين وقيادته ، وكذلك توبة الحر بن يزيد الرياحي ، وتوبة بشر الحافي في عصر الإمام الكاظم عليه السلام ، وتوبة بعض المفسدين في الارض في الجمهورية الاسلامية في إيران الاسلام تلك التي نقلتها أجهزة الاعلام للأمة .

٢ ـ تطبيقات اجتماعية واسعة تجسدت لهذا اللون من التوبة في مجتمعات متعددة من تاريخ البشرية الايماني ، وكانت هذه المجتمعات قد انحرفت عن خط الايمان وطريق الله ورفضت الاصغاء لدعوات أنبياء الله في بلادها ، فحق عليها العذاب الالهي ، وكانت على قسمين: قسم منها تاب قبل نزول البلاء السماوي بفترة قصيرة مما سبب ارتفاعه عنها رحمة من الله

---

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

بها ، كقوم يونس وقسم منها لم يتب فحق عليها القول فعذبها الله سبحانه كما وعد وأنذر في كتبه ورسالاته والقسم الاخير على صنفين ، منها مجتمعات ومدن مسخ الله سبحانه أهلها أو مسح معالمها من الوجود بعذاب ماحق من الارض أو السماء كالطوفان أو الزلازل أو البراكين المدمرة ، أو غير ذلك ..، ومنها أمهلها الله سبحانه وعذبها في حياتها السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية على يد طواغيتها، كما قال عزوجل:

﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بانفسهم ﴾ (١) .

وهذا الصنف الاخير على قسمين كذلك :

« الاول » : مجتمعات بقيت على ضلالها وفسادها وانحرافها فلم تثب إلى رشدها رغم أنواع المحن والبلاء الذي يحل بها من الله سبحانه بسبب اعتكافها على معاصيها الاجتماعية .

« الثاني » : مجتمعات استيقظت من غفوتها وطلّقت أيام الانحراف بعد أن حلّ بها عذاب الله سبحانه ، فاتّعظت بذلك ورجعت إلى رشدها وتابت إلى ربها من جرائمها الاجتماعية الكبرى ، كقوم موسى عليه السلام

---

(١) الانعام ، ٢٣ .

وكقوم سلـــيمان بن صرد الخزاعي في الكوفـــة ، بعد استشهاد الامام الحسين عليه السلام في كربلاء، ولنقتصر على سرد قصة هذه المجتمعات الثلاث التائبـــة .. أعني« قوم يونس عليه السلام » و « قوم موسى عليه السلام » و « قوم سليمان بن صرد الخزاعي » .

توبة قوم يونس عليه السلام

قال الله سبحانه :

﴿ وان يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ [1] .

هذه الآية وما بعدها تنـاولت قصة يونس عليه السلام ، ولم تتعرض لقصة قومه إلا إشارة خاطفة بالأخير ، وهذه الآيات في سورة الصافات مدخل مهم لمعرفة قصة يونس عليه السلام ، وخلاصتها :

ان يونس عليه السلام كان من المرسلين إلى قومهم ، وكان قومه جمع كثير يزيدون على مائة الف ، فدعاهم إلى الإيمان بما أرسله الله به .

فقابلوه بالرفض ، ولم يجيبوه إلا بالتكذيب والأذى ، وقد وعدهم من قبل بعذاب قادم ينزل بهم من الله سبحانه ـ كما أخبره ـ إن لم يؤمنوا به ،

---

(١) الصافات، ١٣٩ ـ ١٤٠ .

فلم يستجيبوا له ، وقرب موعد العذاب كما يعلمه يونس عليه السلام ، وهم مع ذلك لا زالوا على ضلالهم عاكفون ، وعلى طريق انحرافهم سائرون ، فاعتزلهم يونس عليه السلام وخرج من قريتهم مغاضباً عليهم بدون أن يأذن له الله سبحانه بالخروج منهم كما أذن للوط عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين أنزل البلاء والعذاب بأقوامهم .

ولما أشرف عليهم العذاب ولمحوه بابصارهم أجمعوا على الإيمان برسالة يونس والتوبة إلى الله سبحانه مما ارتكبوا من محرمات وأذى لنبيّه فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، وقال سبحانه :

﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين ﴾ (١) .

وروي في تفسير العياشي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حول طريقة توبتهم فقال :

« ان يونس أمره الله بما أمره ، فأعلم قومه فأضلهم العذاب ففرقوا بينهم وبين أولادهم وبين البهائم وأولادها ثم عجّوا إلى الله وضجّوا فكف الله العذاب عنهم » (٢) .

---

(١) يونس ، ٩٨ .

(٢) الميزان ، ج ١٠ ، ص ١٣٠ .

وهذا الحديث مختصر ، لأن يونس عليه السلام ليس معهم حينما تابوا وإنما بقي يونس في القرى المجاورة لهم يلتقط أخبارهم ويستخبر عن حالهم ، فعلم ان العذاب لم ينزل بهم ، فلم يؤب اليهم ، بل ذهب على رسله وهو كله غضب وحزن عليهم ، وكانه عليه السلام لم يعلم بإيمانهم وتوبتهم بعده فطفق يقطع الفيافي والوديان والجبال متوجهاً إلى ساحل البحر وأظنه « البحر الأبيض المتوسط » على ما تنقل روايات العهدين ، وكان يقصد قرية من القرى المطلة على الساحل الثاني من البحر ، فهو لا يصلها إلا عبر هذا البحر ، فلما انتهى به المسير إلى مرافق السفن الجاثمة على سواحل الشام ركب البحر في سفينة مثقلة بالأمتعة ، فلما تحركت السفينة وصارت في الأعماق وأظلهم الليل ، فإذا بحوت ضخم يعترضها،ففكروا بأن يتخلصوا منه ، فلم يهتدوا إلا بأن يلقوا اليه واحداً من ركاب السفينة ليبتلعه ، وتنجو السفينة بالباقين ، فجعلوا القرعة حكماً بينهم لتعين لهم من يلقوه لهذا الحوت المهول ، فأصابت القرعة يونس « فساهم فكان من المدحضين »[1] ، فألقوه في البحر فابتلعه الحوت ونجت السفينة ـ ولكن الله سبحانه حفظه في بطن الحوت أياماً وليال ، وعلم يونس عليه السلام ان ذلك بلاء له من ربه ، فلما استقر في الظلمات (ظلمة جوف الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل) أخذ ينادي بصوت عال في بطن الحوت مسبحاً الله

---

(١) الصافات ، ١٤١ .

تعالى « أن لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين » فاستجاب الله دعائه وأمر الحوت أن يلفظه :

﴿ وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ [1] .

﴿ فلولا انه من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون ﴾ [2] .

فقذفه الحوت على ساحل البحر وكان عرياناً مريضاً سقيماً فأنبت الله سبحانه عليه شجرة من يقطين لتحميه بأوراقها العريضة من حرارة الشمس ومن الحشرات التي قيل انها لا تقرب هذا النوع من الشجر .

﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ [3] .

فلما استقامت صحته أمره الله سبحانه مرة أخرى بالعودة إلى قومه فاستقبلوه والتفوا حوله ولبوا دعوته وآمنوا برسالته وعقيدته ، فمتعهم الله في الحياة الدنيا إلى حين :

﴿ وأرسلناه الى مائة الف او يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم الي حين ﴾ [4] .

---

(١) الانبياء ، ٨٧ – ٨٨ .
(٢) الصافات ، ١٤٣ – ١٤٤ .
(٣) الصافات ، ١٤٥ – ١٤٦ .
(٤) الصافات ، ١٤٧ – ١٤٨ .

وفي قصة يونس عليه السلام عبرة عظيمة للعاملين الرساليين ، فيونس لم يصبر على قومه ولم ينتظر من ربه أمر الخروج منهم فخرج مغاضباً عليهم ضيق الصدر حرج النفس فأوقعه الله سبحانه في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذبين انه ضيق الظلمات في بطن الحوت المهول .

فمن يحمل أمانة الله للناس لا بدّ أن يحتمل كل تكاليفها وأن يصبر على التكذيب والإيذاء من أجلها ، صحيح ان تكذيب الصادق الواثق مرير على النفس ثقيل على الأتقياء ، ولكنه بعض تكاليف الرسالة فلا بدَّ إذاً لمن يكلف بحمل مسؤولية السماء أن يثابر في أدائها وتبليغها ويصبر على أذاها ويتحمل ويثبت أمام إنكار المنكرين وتكذيب المكذبين واتهامات المنافقين [1] .

توبة قوم موسى عليه السلام

قوم موسى عليه السلام هم شعب بني إسرائيل ، هذا الشعب المتعِب الذي أثقل كاهل أنبياء الله بأنواع المآسي والتمرد الأليم ، وفي مقدمة هؤلاء

---

(١) لقد أسهبنا في قصة يونس لانه عليه السلام كذلك يعتبر مذنباً في هذه القصة وقد رأيت كيف عاقبه الله سبحانه على ذنبه الاجتماعي هذا وكان يقول في الظلمات (.. اني كنت من الظالمين) ومعصية يونس ليست كمعاصينا لانه معصوم منزه عن ذلك بل معصيته هو تركه للاولى .

الأنبياء الذين تحملوا شتى أنواع العذاب النفسي والإرهاق الجسمي من بني إسرائيل نبي الله موسى عليه السلام ، هذا الرجل الذي كله ثورية وحماس للعقيدة الإلهية ، وكله غيرة على القيم الدينية ... وقد واجه موسى عليه السلام من قومه تكذيباً مريراً وامتحاناً كبيراً ... كذبوا برسالته وعقيدته، ووضعوه في مواقع الاختبار ليتأكدوا من صحة نبوته وهم يعلمون بصحتها ، وكانهم مكلفون بانتخاب أنبياء الله على الأرض،ومن ثم تطاولوا عليه حينما طلبوا منه دلائل تثبت حقيقة هيمنة الألوهية على الوجود ، مع ما قدم لهم من براهين كثيرة ساطعة ، وأخذوا يتدللون عليه وعلى الله سبحانه كما يتدلل الطفل السيء التربية على والديه ، ومن سيئاتهم ولعلها أكبرها مع موسى عليه السلام عدم الاستجابة لأوامره القيادية وعبادتهم العجل من دون الله بمجرد أن فارقهم أربعين يوماً لميقات كان له مع ربه .. وحينما وصل الكفر والطغيان في هذا الشعب إلى هذا الحد ، أمره الله سبحانه على لسان نبيه بالتوبة ، فقال :

﴿ واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، انه هو التواب الرحيم ﴾ (١) .

---

(١) البقرة ، ٥٤ .

وبعد أن أحس هذا الشعب المخادع بعظيم جنايته ، وكبير معصيته، وشعر أن الله قد سخط عليه ، أعلن إطاعته الكاملة لنبيه موسى عليه السلام فامرهم موسى بالتوبة إلى الله تعالى من ذنوبهم وظلمهم أنفسهم ، وكانت طريقة توبة هذا المجتمع أعنف وأشد أساليب التوبة الجماعيـــة في تاريخ مجتمعات التوحيد التائبة ، وأكثرها تأثيراً في قلع جذور الفساد والخبث من النفس والمجتمع ، انها طريقة الاقتتال بين الأخ وأخيه وجهـاً لوجه من أجل أن يرضوا الله ، وبين الابن وأبيه والخال وأبناء أخته،وهكذا. ولنترك الإمام أمير المؤمنين عليه السلام شبيه موسى عليه السلام في ابتلاءاتـــه ، نعم نتركه هو يصور لنـــا توبة هـذا المجتمع العـابث الذي ملأ التاريخ فساداً ، قال :

« ان موسى لما خرج إلى الميقات ورجع إلى قومه وقد عبدوا العجل، قال لهم موسى : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخـــاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم !! فقـالوا له : كيف نقتل أنفسنا ؟ فقال لهم موسى : اغدوا كل واحد منكم إلى بيت المقـدس ومعه سكين أو حديدة أو سيف فإذا صعدت أنا إلى منبر بني إسرائيل فكونوا أنتم متلثمين لا يعرف أحد صاحبـــه فاقتلوا بعضكم بعضاً ، فاجتمعوا سبعين الف رجل ممن عبدوا العجل إلى بيت المقدس ، فلمـــا صلّى بهم موسى وصعد المنبر أقبل بعضهم يقتل بعضاً حتى نزل جبرائيل فقـال :

قل لهم يا موسى ارفعوا القتل فقد تاب الله لكم ، فقتل منهم عشرة آلاف، وأنزل الله (ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم) »[1] .

هكذا وردت الروايات عن تلك الكفارة العنيفة وانه لتكليف صعب مرهق شاق أن يقتل الأخ أخاه ، فكأنما يقتل نفسه برضاه ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنحرفة والإرادة الضعيفة التي لا تتماسك عن شرٍّ ولا تتناهى عن منكر ، ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عبدوا العجل ، (وإذا لم يتناهوا بالكلام ، فليتناهوا بالحسام وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتربيهم)[2] .

توبة أهل الكوفة

ومن التطبيقات التاريخية للتوبة الجماعية التي مورست في مجتمعات التوحيد هي توبة المجتمع الكوفي التي أعلنها بعد أن ساهم مع الأمويين في ارتكاب أكبر جريمة سياسية في حياته ، تلك التي نقض فيها العهود والمواثيق التي كان قد قطعها على نفسه وقدمها لقائده وإمام عصره

---

(١) الميزان ، ج ١ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) في ظلال القرآن ، ج ١ ص ٨٩ .

الحسين عليه السلام ووعده فيها بالوقوف معه ضد حكومة يزيد بن معـــاوية الحاكم الأموي المفروض على المسلمين بالقوة .. !!

وطلب أهل الكوفـة على لسان زعمائهم ورؤساء عشائرهم من الإمام الحسين عليه السلام الإسراع اليهم بهدف استلام الحكم والاستعداد لمحاربة السلطة الأموية الظالمـة في الشام ، ولكن بمجرد أن وصل اليهم المبعوث الشخصي للإمام الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل ، انقلبوا ضده على أثر تغيير جزئي في سياسة الإدارة والحكم داخل الكوفة قام به عبيد الله بن زياد ، والي يزيد ابن معاوية على الكوفة .

ولم يتوقف هذا المجتمع السيء الحظ عند حدود الإساءة إلى مبعوث الإمام والمساهمة في قتله أو على نقض العهود والمواثيق التي قطعها على نفسه وأرسلها للحسين فحسب ، بل وإنما أقدم مع ذلك على ارتكاب أفظع جريمة اجتماعية في تاريخ الإسلام يوم قام بمجزرته الدموية الرهيبة الظالمـة فقتل قائده الإمام الحسين وأقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في عصره وأوجه المسلمين علماً وتقوى وأجدرهم في القيادة والخبرة السياسية ... وقتـل ـ كذلك ـ معه كوكبـــة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وأخرى من خيرة أصحابه المخلصين ، وكان ذلك بطريقة مخزية جبـــانة يعرق الجبين من وصفها ويستحي القلم من الحديث عنها .

وبعد هذه الجريمة الكبرى بفترة قصيرة جداً شعر أبناء هذا المجتمـع

المنحرف بفداحة جريمتهم وضخـــامة مأساتهم على الصعيد العقـــائدي والسياسي والعاطفي ، فأخذت بعد ذلك تشتعـل نيران النـدامة والحزن والأسف في قلوب وصدور الكوفيين قاطبة ، وصمم قسم كبـير منهم على التوبة من جريمتهم الاجتماعية هذه ، فتلاقوا بالتلاوم والتنادم على مقتل ابن بنت الرسول ﷺ ووجدوا أنفسهم أنهم قد أخطأوا خطأ كبيراً بدعوته اليهم وعدم إجابتهم له إلى أن قتل بجانبهم عطشاناً غريبـــاً مظلوماً فلم ينصروه ، بل ساعدوا على قتله ... !! ورأوا انـــه لا يغسل عنهم ذلك الجرم الكبير إلا بالتوبة وبقتل من قتـل الحسين عليه السلام ، أو القتل فيـه ، فتحركوا سنة خمس وستين بالكوفة ، وفزعوا إلى خمسة نفر منهـــم هم وجوه أهل الكوفة يوم ذاك ، وهم : سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيب ابن نجبة الفزاري ، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي ، وعبد الله بن وال التميمي ، ورفاعة بن شداد البجلي .

وتحرك هؤلاء القادة بدورهم في حملة إعلامية واسعة النطاق في داخل الكوفة في سبيل توعية هذا المجتمع المارق عن الدين وإشعـــاره بعظيم جنايته بحق الرسالة وأهل بيت الرسالة ، وتحسيسه بضرورة التكفير عن هذه الجريمة ، فاستجاب لهم عدد كبير من أهل الكوفة ، وشكّلوا حركة عسكرية فدائية أطلقت على نفسها اسم « حركة التوابين » .

وقبل أن يخرجوا من الكوفة وينطلقوا إلى ساحات القتـــال ، قام

شعرائهم وخطبائهم يلقون الكلمات والأبيات التي يتحدثون بها عن عظيم جنايتهم بحق الرسول والرسالة وتكلموا عن أهدافهم من هذه الحركة ، ومما قاله شاعرهم عبد الله بن الأحمر ، وهو يحرض الكوفيين على الخروج إلى القتال والتوبة :

صحوت وودعت الصبا والغوانيا وقلت لأصحابي أجيبوا المنـــاديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى وقبل الدعاء لبيك لبيك داعيا [1]

وقال في موضع آخر :

خرجن يلمعن بنا ارسالا عوابساً يحملننـا أبطـالا
نريد أن نلقى بهـا الاقيالا القاسطين الغدر الضلالا
وقد رفضنا الولد والأموالا والخفرات البيض والحجالا
نرضي به ذا النعم والمفضالا [2]

ووقف فيهم قائدهم الكبير والصحابي الجليل سليمان بن صرد الخزاعي خطيباً ، فقال :

« أيها الناس من كان يريـد بخروجه وجه الله والآخرة فذلك منـا ، ونحن منه ، فرحمة الله عليه حيّاً وميتاً ، ومن كان إنما يريد الدنيا فوالله

---

(١) و (٢) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٠١ .

ما يأتي في ء نأخذه وغنيمة نغنمها ما خلا رضوان الله ، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا متاع ما هو إلا سيوفنا على عواتقنا وزاد قدر البلغة ، فمن كان ينوي هذا فلا يصحبنا » .

فتنادى أصحابه من كل جانب :

« إنّا لا نطلب الدنيا ، وليس لها خرجنا ، إنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله نبينا »[1] .

ثم تحركوا باتجاه كربلاء ، حيث مصرع قائدهم الحسين عليه السلام وانتهوا إلى قبره ، فلما وصلوا صاحوا صيحة رجل واحد ، فما رؤي أكثر باكياً من ذلك اليوم[2] ، فترحموا جميعاً على الحسين عليه السلام وأصحابه وأعلنوا توبتهم عند قبره ، وأقاموا العزاء والتنادم والتخاطب بالتلاوم عند القبر يوماً وليلة كل ذلك وهم يبكون ويتضرعون ويتعبدون ويطلبون من الله تعالى العفو والمغفرة ، وكان مما قالوه عند قبر الإمام الحسين عليه السلام :

« اللهم ارحم حسيناً الشهيد بن الشهيد المهدي بن المهدي الصدّيق بن الصدّيق ، اللهم إنا نشهدك أنّا على دينهم ... اللهم إنّا خذلنا ابن بنت

---

(١) الكامل لابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٣٤٠ .
(٢) الكامل لابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٣٤١ .

نبينا ﷺ فاغفر لنا ما مضى منا ، وتب علينا فارحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصديقين ، وإنّا نشهدك أننا على دينهم وعلى ما قتلوا عليه ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »[1] .

وقال شاعرهم عبد الله بن الأحمر وهو واقف على قبر الحسين عليه السلام :

سقى الله قبراً ضمّن المجد والتقى　　بغربيه الطف الغمام الغواديا

فيا أمة تاهت وضلت سفاهة　　أنيبوا فارضوا الواحد المتعاليا[2]

ثم تركوا القبر بعد أن كان الرجل منهم يعود إلى قبر الحسين كالمودع له ، فازدحموا عليه أكثر من ازدحامهم على الحجر الأسود[3] وزحفوا بعد ذلك إلى القتال الذي يطلبون فيه التوبة من الله تعالى وتجمعت قواتهم بالنخيلة ومن هناك تحركوا إلى عين الوردة موقع معركتهم واشتباكهم مع الجيش الأموي حيث بدأ القتال بينهم مع قلة عددهم وعدتهم ، وكثرة عدوهم عدداً وعدة ، وتلاحم الجيشان في معركة ضروس يقودها عبيدالله ابن زياد من جانب الأمويين وسليمان بن صرد الخزاعي من جانب

---

(١) الكامل لابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٣٤١ .

(٢) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٠١ .

(٣) الكامل لابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٣٤١ .

التوابين ، وكان سليمان يحث أصحابه للقتال بالشعارات الإسلامية ويحمسهم بكلمات التوبة ، فكان ينادي وهو يقاتل :

« عباد الله من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه فإليّ .. »[1] .

وانتهت ـ مع الأسف ـ هذه الحركة المخلصة التائبة باستشهاد أكثر عناصرها بما فيهم قادتها الخمسة الأبطال ، ولكنها بقيت على طول التاريخ مضرب الأمثال عند المسلمين في الإخلاص لله سبحانه ، وفي الشجـــاعة ورباطة الجـأش ومقارعة الصفـاح ، فبالرغم من قلة عددهم وعدتهم فإنهم استطاعوا أن يفككوا الآلاف المؤلفة من الجيش الأموي ويشتتوا قواه ، وجعلوه يطلب المزيـد من المـدد والمساعدات العسكرية من الشام ، وهو دليل على انكسار هذا الجيش على يدي التوابين الأبطـال ، كما ذكر ذلك أكثر المؤرخين .

ومما يدل على ضعف جيش الشام ـ على ضخامته ـ في هـذه المعركة هو أنه كان يعرض ـ بين فـترة وأخرى ـ شروطاً وعهوداً ـ على قادة التوابين ـ لإيقـاف القتـال ، إلا أن التوابين كانوا يزدادون إصراراً على مواصلة القتال إيماناً مقهم بضرورة التكفير عن ذنوبهم بالتوبة المخلصة إلى

---

(١) الكامل لابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ .

الله سبحانه عن طريق الإنتصار أو الشهادة ، فحينما عرض الأمان لكرب الحميري آخر قائد التوابين ، فإنه رفض قبوله بقوة مع أنه كان مثقلاً بالجراح ، وان جنوده الباقين لا يزيدون عن المئة نفر ، وقد ردَّ على الذين عرضوا عليه الأمان من قادة الأمويين بكلمة خالدة وعظيمة جداً ، قال لهم فيها :

« قد كنا آمنين في الدنيا وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة »[1] .

وهذا يدل على صدق نية التوابين وإخلاصهم في طلب التوبة وهم في آخر لحظات الحياة .

الأبعاد التربوية للتوبة الجماعية

من خلال العرض السريع لتاريخ المجتمعات التائبة الثلاث التي تحدثنا عنها سابقاً يتضح بأن التوبة الجماعية ذات أبعاد تربوية ـ إيجابية بعيدة الأغوار في النفس البشرية والمجتمع التائب ... انها انقلاب شامل وثورة اجتماعية حاسمة ، انقلاب مجتمع بكامله ضد عاداته وتقاليده وأفكاره المنحرفة وثورة مجتمع أخلص في توبته الى الله سبحانه ، فثار على واقعه وعلى كل ألوان الفساد التي تزخر بها حياته وتتحكم في علاقاته

---

(١) الكامل لابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٣٤٢ .

ووجوده ومصيره .

ان الأمة التائبة أمة امتلكت احساساً جماعياً عميقاً وواع بواقعهـــا الاجتماعي الغارق في الفساد والضلال وظلام الانحراف وانطـلاقاً من هذا الوعي الاجتماعي الشمولي أخذت تشعر بمرارة ومأساة هذا الواقع ـ بكل معاناته ـ وأخذت تدرك بأنه هو السبب الذي أبعدها عن الله سبحانـه ، وان الله نساها لأنها نسته وابتعدت عن طريق هـداه وسوف يعاقبهـا على انحرافها هذا عاجلاً أم آجلاً .. ولهذا اختارت أقرب طريق يعود بها إلى الله سبحانه ، وهو طريق التوبة ، واتخذت قرارات حاسمـــة من أجل الانتقال بصورة سريعة من طريق الضلال إلى طريق الاستقامة نحو الله .

ان هذا الشعور الإيماني في المجتمع التائب يشمل ـ غالباً ـ أكثر أفراد الأمة المنحرفة بسبب تحكم العقل الجسمي في حركتهـا الجديـدة نحو الله سبحانه ، وفي شعورها بضرورة التكفير عن جرائمها الاجتماعية والعودة من جديد إلى خط الإيمان بقيم السماء .. ولذلك تكون توبـة المجتمع ذات نتائج إيجابية أوسع وأعمق بكثير من التوبة الفردية وحتى أكثر فائـــدة تربوية للمجتمع من التوبة الفردية الاجتماعية كتوبة الثلاثة الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في معركة تبوك أو كتوبة الحر بن يزيد الرياحي .

وإذا كانت التوبة الفردية طريق المـــذنب أو المجرم لإصلاح نفسه والرجوع إلى الله سبحانه بعد أن يتّبع منهجاً تربوياً خاصاً يضعه لنفسه

من أجل أن يقلع منهـا - وبمرور الأيام الطويلة - جذور الفساد ويزرع مكانها حب الله سبحانه وحب القيم الإلهية ليكون من الصالحين حقاً ،فإن التوبة الجماعية لا تحتاج إلى عمل تربوي متدرج الأساليب ولا إلى أيام طويلة حتى تضع المجتمع التائب في أجواء الإخلاص الكامل لله سبحانـه ، وإنما هي هجرة سريعة إلى الله ونقلة مستعجلة من حياة اجتماعية تتحكم بها القيم المادية إلى حياة عامرة بقيم السماء ، وتعاليم الأنبياء،وان هذه النقلة السريعة ترتفع وبشكل خاطف بالمجتمع المجرم الجبان المتخاذل عن نصرة الحق.. نعم ترتفع بهذا المجتمع التائب كله إلى أعلى درجات الإخلاص لله فترشحه رأساً إلى نيل درجة الشهادة في سبيل الله ، وما أعظمها من درجة ، تلك التي لا يبقى معها ذنب .

وقد يتحول المجتمع التائب إلى كتلة ثورية وثارية من مشاعل الإيمان المضيئة في تاريخ مجتمعات التوحيد ، مشاعل تحرق نفسها لتضيء الدرب أمام الموحدين التائبين من أجيـــال المستقبل كما هو الحال في حركة التوابين الشهيرة .

انها حركة إيمانية مخلصة ، لم تقم لتحكم أو تتزعم ، بل انها قامت من أجل أن تموت على صخرة الحب الإلهي في محراب الشهادة .

لم يحدد الإسلام أسلوباً عملياً وبرنامجاً تربوياً ثابتاً للتوبة الجماعية ، ونقصد بالتوبة الجماعية هنا توبة المجتمع المذنب أو الأمة المذنبة ، ولا نقصد التوبة الفردية الجماعية ، فإن هذه التوبة قد حدد لها ذلك كما أشرنا إلى أساليبها المختلفة حسب كل معصية منها في أول موضوع « التوبة الجماعية » .

وطريقة التوبة الجماعية التي حددها الله سبحانه لبني اسرائيل لاتصلح برنامجاً ثابتاً لعامة التوبات الاجتماعية للمجتمعات التي تنحرف عن نهج السماء ، لأن المجتمعات تختلف في جرائمها الاجتماعية وانحرافاتها العامة من مجتمع الى آخر .

وعلى كل حال انها طبيعة الإسلام المرنة التي ترفض تجميد أساليب التربية الاجتماعية في قوالب وأساليب محددة ، فكان من الطبيعي أن يوكل الاسلام هذه المهمة الكبرى بكل تفاصيلها للمجتمع التائب نفسه ، لأن هذا المجتمع يدرك جيداً نقاط الضعف في تركيبته الاجتماعية المنحرفة كما يعرف اسباب فساده وطغيانه وضلاله وانحرافه ، فإذا هو بنفسه يستطيع أن يرسم منهاج توبته لأنه يعرف دواء دائه ، كما فعل المجتمع الكوفي الذي وجد نفسه متخاذلاً عن نصرة الإمام الحسين عليه السلام والدفاع

عن قضيته المقدسة ، فصمم على دفع ثمن هذا التخاذل بطريقة الشهـــادة الانتحارية .

فالتوبة الجماعية قرار جماعي ، والقرارات الجماعية يصنعها غالباً العقل الجماعي الذي يتاثر ـ غالباً ـ بالهزات العاطفية ، فالمجتمع المنحرف حينما يصل الى مستوى اتخاذ هذا القرار الذي يكشف عن رغبة حقيقية لديه ، تدل على رجوعه عن غيّه وفساده وطغيانه وضلاله . . وحينـــما يصل المجتمع الى هـــذا المستوى من الوعي يستطيع أن يرسم لنفسه منهاجاً لتوبته الجماعية ... نعم ، الاسلام يعمل في هذه الحالة على توجيه هذه المشاعر الهائجة من أجل تحصينها من الانحراف ، فيلقي المسؤولية على كل من له موقع رسالي وايماني في هذا المجتمع ، فيحثه على توجيه هذه المشاعر الايمانية توجيهاً صحيحاً في ممارسة التوبة الجماعية بالشكل الذي يتناسب وأهداف الرسالة الاسلامية في الحياة وبالشكل الذي يحقق رضى الله سبحانه ، ويكون البرنامج التربوي الذي يحدده المؤمنون الرساليون لمجتمعهم التائب مستوحاً من خلال المفاهيم والأفكار التربوية التي أثارها الاسلام حول طريقة التكفير عن الذنوب بشكل عام ، ومستفاداً كذلك من خلال الواقع التطبيقي للتوبة الجماعيـــة التي مورست في مجتمعات التوحيد عبر تاريخ الرسالات الالهية .

وأخيراً أعتذر من قارئي الكريم عما وجده في الكتـــاب من خلل

أو تقصير ، وعذري أني كتبته في أيام انشغـــالي بالدراسة ، فلم يحالفني التوفيق لكتابة موضوعاته دفعة واحدة اللهمّ الا الفصل الرابع منه حيث استطعت أن أوفر له أياماً معدودة من عطلة شهر رمضان المبارك .

وفي الختام نصلي على محمد وآله ونبتهل الى الله سبحانه وتعـالى بأن يغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات ، ويعاملنا بلطفه ورحمته الواسعـــة ويتقبل عملنا بقبول حسن .

والحمـــد لله رب العـــالمين

اهم مصادر الكتاب

كتب التفسير

تفسير الميزان	للسيد الطباطبائي
تفسير القمي	لعلي بن ابراهيم القمي
تفسير العياشي	لمحمد العياشي
في ظلال القرآن	للسيد قطب

كتب الأخلاق

المحجة البيضاء	للفيض الكاشاني
جامع السعادات	للشيخ النراقي
الحقائق	للفيض الكاشاني
الأربعين	للشيخ البهائي
إرشاد القلوب	للديلمي

منية المريد	للشهيد الثاني

كتب الفقه

تحرير الوسيلة	للامام الخميني
المكاسب	للشيخ الأنصاري
جواهر الكلام	لمحمد حسن النجفي
مسالك الافهام	للكاظمي
القواعد الفقهية	للبجنوردي

كتب الحديث

من لا يحضره الفقيه	للشيخ الصدوق
الخصال	» »
عيون أخبار الرضا عليه السلام	» »
ثواب الأعمال وعقاب الأعمال	» »
بحار الانوار	للمجلسي
الوسائل	للحر العاملي
أصول الكافي	لثقة الاسلام الكليني
أمالي الطوسي	لشيخ الطائفة

نهج البلاغة	لامير المؤمنين عليه السلام
مصباح الشريعة	للامام الصادق عليه السلام

كتب الأدعية

الصحيفة السجادية	للامام زين العابدين عليه السلام
مفاتيح الجنان	للشيخ عباس القمي
الاقبال	للعارف ابن طاووس

كتب اللغة

اساس البلاغة	للزمخشري
مفردات الالفاظ	للراغب الاصفهاني
المعجم الوسيط	مجمع اللغة العربية

كتب التاريخ

الكامل في التاريخ	لابن الاثير
مروج الذهب	للمسعودي

الكتب الفكرية

الاسلام ومنطق القوة	للسيد محمد حسين فضل الله
الاسلام ومتطلبات التغيير الأجتماعي	للسيد الطباطبائي
التكامل في الاسلام	لأحمد أمين
الصوم تربية وهداية	دار التوحيـد
المعصية والشقاء	» »
السنن التاريخية	للسيد محمد باقر الصدر
الطفل بين الوراثة والتربية	لمحمد تقي فلسفي

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٧
المقدمة	٩
منهج البحث	١٥
الفصل الأول: الذنوب، آثارها، أنواعها، أسباب وطرق علاجها	٢١
ما هي الذنوب؟	٢٣
الأبعاد السلبية للذنوب	٢٤
١ ـ أثر الذنوب على القلب	٢٧
٢ ـ اقتراف الذنوب ينسي العلم	٢٩
٣ ـ ارتكاب الذنوب يسلب الخشوع	٣٠
٤ ـ الذنوب تمنع استجابة الدعاء	٣١

الموضوع	الصفحة
٥ ـ ارتكاب الذنوب يزيل النعم	٣٢
٦ ـ ارتكاب الذنوب ينزل البلاء	٣٣
أنواع الذنوب	٣٧
التقسيم العقلي للذنوب	٣٧
التقسيم الشرعي للذنوب	٣٨
كبائر الذنوب	٤٠
قائمة في بعض كبائر الذنوب	٤٨
صغائر الذنوب	٦٣
الذنب الصغير قد يصبح كبيراً	٦٤
اجتناب الكبائر مكفِّر للصغائر	٦٩
شبهة واهية !	٧١
أسباب الوقوع في المعاصي	٧٢
كيف عالج الاسلام مشكلة الذنب ؟	٧٥
أولاً : الخطة الوقائية	٧٦
ثانياً : الخطة العلاجية	٧٧

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني : التوبة في التشريع الاسلامي	٨٧
التوبة لغة وشرعاً	٨٩
الخطيئة والتوبة في الاسلام	٩١
متى يعتبر الانسان مذنباً ؟	٩٧
وجوب التوبة على المذنبين	١٠٠
وجوب التوبة على الجميع	١٠٦
دوافع التوبة ومقوماتها	١٠٧
قبول توبة المذنبين	١١٠
قبول التوبة لطف إلهي	١١٢
شروط قبول التوبة	١١٣
التائبون أمام القضاء الاسلامي :	١٢٠
الحالة الأولى	١٢١
الحالة الثانية	١٢٢
توبة المرتدّ	١٢٥
توبة المفسد في الأرض	١٢٦
حقوق الناس	١٣٠

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث : التوبة منهج تربوي رباني	١٣٣
التوبة دعوة مفتوحة للمذنبين	١٣٥
منزلة التائبين عند الله تعالى	١٣٩
الأبعاد التربوية للتوبة	١٤٣
درجات التوبة	١٤٧
التوبة النصوح	١٤٩
معنى التوبة النصوح لغة وشرعاً	١٥٠
الاسلام يحث على التوبة النصوح	١٥٢
التوبة النصوح وازدواج الشخصية	١٥٣
التوبة النصوح منهج تربوي كامل	١٥٦
الخطوة الاولى : التخطيط للتوبة	١٥٦
الخطوة الثانية : إعلان التوبة	١٥٩
الخطوة الثالثة : تطبيق الخطط العملية للتوبة	١٦٢
الخطوة الرابعة : المراقبة الذاتية والمحاسبة اليومية	١٧١
الفصل الرابع : المعصية الجماعية والتوبة الجماعية	١٧٥
تمهيد	١٧٧

الموضوع	الصفحة
الفهم الاسلامي للمعصية الجماعية	١٧٩
أضرار المعصية الجماعية	١٨٢
علاج المعصية الجماعية	١٩٢
التوبة الجماعية	٢٠٠
الطريق الاول	٢٠٥
الطريق الثاني	٢٠٨
توبة قوم يونس عليه السلام	٢١١
توبة قوم موسى عليه السلام	٢١٥
توبة أهل الكوفة	٢١٨
الابعاد التربوية للتوبة الجماعية	٢٢٥
طريقة التوبة الجماعية	٢٢٨
اهم مصادر الكتاب	٢٣١